المصطلح القرآني
وعلاقته بعلم الأخلاق

إعداد

دة. كلثومة دخوش

أستاذة بمركز مهن التربية والتكوين – وجدة

المغرب

المؤتمر العالمي الرابع للباحثين في القرآن الكريم وعلومه

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الموضوع:

إشكالات المصطلحات في علاقتها بعلم الأخلاق، ذات تجليات لا على مستوى مصطلحات العلم فقط، بل على مستويات عدة ، ذلك أن علم الأخلاق بما هو "صناعة الأخلاق التي تعنى بتجويد أفعال الإنسان بما هو إنسان"[1]، من العلوم التي مرت بأزمات عبر التاريخ الإسلامي، أزمات على مستوى التسمية، وعلى مستوى المصطلحات، وعلى مستوى الانتماء، ونتيجة لذلك، أزمات على مستوى التنزيل.

- فعلى مستوى التسمية: عرف المجال الذي يتحدث عنه بأسماء عدة منها الأخلاق، الآداب، الفضائل، القيم.

- وعلى مستوى المصطلحات المستعملة داخل العلم، ورغم وفاء علم الأخلاق للمصطلحات القرآنية عموما كالخير والشر والعدل والحكمة. . ، إلا أنه في مراحل من تطوره طغت عليه مصطلحات فلسفية تم ترحيلها من الفلسفات القديمة، أو يتم ترحيلها في عصرنا من مجالات معرفية متعددة.

- أما على مستوى الانتماء، فقد تجاذبت هذا العلم عدة تخصصات، وهذا التجاذب ناتج، من ضمن ما هو ناتج عنه، عن طريقة تناول الحديث عن الأخلاق، هذه الطريقة في التناول يمكن تقسيمها إلى ما هو كلام عملي عام يسرد الأخلاق سردا ويدعو إليها، وهو ما عرف ضمن مجال الفقه والرقائق أو الزهد، وحاليا مع بعض الأخلاقيين المسلمين، والقسم الثاني يتعلق بالحديث عن فكر أخلاقي أو نظرية أخلاقية، وهنا يمكن الحديث قديما عن كتابات المتكلمين والفلاسفة، وحديثا عن كتابات المفكرين المسلمين، وكذا التربويين.

[1]- مسكويه- 188

ذلك أنه إذا كان جل من أرخ لعلم الأخلاق العربي الإسلامي، بشقيه العملي والنظري، يجعل كتابات المتكلمين في أمور أخلاقية كالعدل، هي أول مرحلة لهذا العلم، فإن بدايات الحديث عن الأخلاق كان سابقا لهذا الزمن وإن لم يدون إلا في مراحل لاحقة، والتأسيس لهذا الحديث في الأخلاق كان من القرآن ومن الحديث الذي رفع شعار الأخلاق عاليا عندما أخبرنا الرسول صلى الله عليه وسلم أنه إنما بعث ليتمم مكارم الأخلاق، ومن هنا بدأت عناية رواة الحديث بأبواب تدخل في مسمى الأخلاق كالمناقب وأبواب البر والصلة. . .

ثم ظهر التأليف في الأخلاق ابتداء من عصر التدوين ضمن كتب الحديث والفقه خاصة، باعتبار الأخلاق أحكاما قرآنية، ليصبح التأليف بعد ذلك في الأخلاق مستقلا وإن بمسميات أخرى، كما نجده عند ابن المقفع في الأدبين الكبير والصغير مثلا، كما سيأتي.

إضافة إلى تناول علماء الكلام أبوابا مما يدخل في الأخلاق، مثل حديثهم عن العدل، ثم ظهور الحديث عن الأخلاق في كتابات الزهاد والمتصوفة.

بعد ذلك كانت بداية تناول الأخلاق من جانب فلسفي، بعد الانفتاح على الفكر اليوناني والفارسي، وهنا نشير إلى كتب الفلاسفة المسلمين، كمسكويه في كتابه: 'تهذيب الأخلاق'، الذي اعتنى فيه بفلسفة الأخلاق أو بالأخلاق على الشكل الفلسفي ، مرورا بغيره ممن تحدث عن الاخلاق بقوالب فلسفية ، وهنا نسجل دخول مصطلحات فلسفية محظة في هذه التصنيفات ، قال محمد عبد الله دراز: " وإذن، فلم يكن هنالك سوى كتب إنسانية محضة، أجهد مؤلفوها أنفسهم، فاستودعوها ثمرات تأملاتهم ودراساتهم الفلسفية، ولم يظهر فيها النص القرآني كلية، أو هو لا يكاد يظهر إلا بصفة ثانوية[1]"

كما نسجل بداية الإشكال المصطلحي وأثره على مستوى التنظير والتنزيل، بعد أن دخل مصطلح الفضائل إلى هذا الحقل الدلالي، ما أدى إلى اعتبار الأخلاق، بما هي فضائل(نوافل) من التحسينيات عند علماء المقاصد، يقول الدكتور طه عبد الرحمن: "فالفضيلة من الفضل،

[1]- دستور الأخلاق- محمد عبد الله دراز- ص: 4.

والفضل هو ما زاد على الحاجة، أو ما بقي من الشيء بعد الوفاء بالحاجة، ولا يبعد أن يكون المنقول الأخلاقي اليوناني قد عمل على ترسيخ معنى "الزيادة" أو التكملة" في مفهوم "الفضيلة""[1].

ثم في العصر الحديث، عادت مباحث الأخلاق لتتصل من جديد بالكتاب والسنة عند الأخلاقيين المسلمين.

ثم انبرى مجموعة من المفكرين في الوقت الراهن للحديث عن الأخلاق، ما نقل علم الأخلاق إلى مجال علمي آخر هو مجال الفكر، كما نجده عند طه عبد الرحمن ومحمد عابد الجابري وغيرهما.

لكن ظهر قلق مفهومي آخر يتجلى في التداخل بين مفهوم الأخلاق ومفهوم القيم، هذا المفهوم الذي ظهر ، أول ما ظهر في المجال الاقتصادي، ثم أصبح من المفاهيم الرائدة في المجال التربوي.

معظم ما أوردته هنا ستتم مناقشته خلال هذا البحث الذي سيحاول الإجابة عن أسباب ما عرف ويعرف ب "أزمة القيم"، وسيضع فرضيات تتعلق بأسباب هذه الأزمة، وعلى رأسها التعدد المصطلحي، والابتعاد عن المصطلح الأصل في علم أصَّل له القرآن الكريم والحديث الشريف، ثم لم يلبث أن تجاذبته علوم ومصطلحات أبعدته عن أصله، وحرفت مقصده، خاصة المصطلحات التي لها حمولة قيمية لحضارات أخرى فرضت وتفرض قيمها كبديل عن أخلاقنا الإسلامية، وفي أحسن الأحوال تدعو إلى توحيد القيم (الحديث الآن عن القيم الكونية وما يتطلبه من تدقيقات. . .).

ثم فرضيات أخرى تجعل، بناء على ما سبق، حل مشكلات العلم، خاصة على مستوى التنزيل، رهينا بحل إشكالات المصطلحات المستعملة فيه على مستوى التسمية ، بتدقيق الفروق والعلاقات بين الأسماء (خاصة الأخلاق والقيم) من جهة، ثم على مستوى مصطلحات العلم من جهة ثانية.

[1]- سؤال الأخلاق- ص 53.

ونظرا لاتساع مجالات حضور العلم كما سبق، فسأركز على الكتابات الأخلاقية التي يغلب عليها الطابع الاجتماعي، ويقل فيها أو لا يهيمن عليها الطابع الفلسفي أو الصوفي، مع الإشارة إلى بعضها عند الحاجة.

وقبل الانطلاق في عرض محاور البحث، سأمهد بمقدمات تجعلنا على بينة بالخطوط العريضة التي سيتناولها البحث، وبالأهداف التي يتوخاها:

المقدمة الأولى: لا بد من ملاحظة تشابه تعاطي المسلمين مع ما هو فكري/أخلاقي، بين الحاضر والماضي، ولنقل عدم الاستفادة من أخطاء الماضي في تصحيح أخطاء الحاضر، ذلك أن أهم وأخطر ما نعانيه على مستوى القيم والأخلاق، هو الازدواجية التي عاشها المفكرون المسلمون والتي مازلنا نعيش صورة مطابقة لها وإن كانت بألوان وأطياف عصرية، والسبب في هذا الوضع هو حرب القيم التي تخوضها أمم ضد أمم ولكن على ساحتنا، كما صور الجابري ذلك عندما وصف حالة المسلمين في الماضي، قال: " الحرب بين الروم والفرس لم تنته بانتصار الإسلام عليهما، بل انتقلت إلى ساحة الثقافة العربية لتمارس على مستوى الأدب والأخلاق، على مستوى القيم[1]".

وما أشبه اليوم بالأمس، ولذلك لا مناص من الاعتراف مع الأستاذ طه عبد الرحمن أن معظم الباحثين المسلمين استخدموا ويستخدمون " مفاهيم تحذو حذو المنقول الفلسفي الغربي حذو النعل بالنعل، حتى كأنه لا مشابهة ولا مقايسة، إطلاقا، بين مضامين هذا المنقول وبين ما جاءت به الممارسة الإسلامية من عندها، الأمر الذي أدى إلى قيام ازدواجية في الفكر الإسلامي العربي لم تورث أهله إلى حد الآن إلا الجمود على ما نقلوه، فحُرموا أيما حرمان من ممارستهم حقهم في الإبداع الفلسفي المختلف، في حين لو أنهم كانوا يردون ما ينقلونه إلى ما عندهم، أو على الأقل يقربون بينه وبين ما بأيديهم، لكان لهذا الفكر شأن آخر وأتى بما لم تأت به الأوائل". [2]

وإذا صدق ما قاله في مجال الفكر، فإنه أولى أن يصدق على مجال الأخلاق-وهو فرع عن الفكر- من باب أولى ، ذلك أن مجال الفلسفة كان غيرنا أسبق إليه وأوسع فيه باعا، أما مجال

---

[1]- الجابري- العقل الأخلاقي العربي- ص: 25.

[2]- سؤال الأخلاق ص 30.

الأخلاق، فإنا وإن سُبقنا إليه، إلا أن تركيز الدين عليه وحمل لوائه واعتباره شعارا ومقصدا، يؤهلنا للتميز فيه والاهتداء فيه إلى التي هي أقوم لنا ولغيرنا.

المقدمة الثانية: أهمية المسألة المصطلحية في توجيه المسألة الأخلاقية:

من تجليات دور المصطلحات في الحكم على المسألة الأخلاقية، أن المصطلح محدد من محددات قوة الجانب الأخلاقي أو ضعفه، بمعنى أن الحكم على لغة أو أمة بقوة أو ضعف عنايتها بالجانب الأخلاقي، يتوقف إلى حد كبير على مدى وجود مصطلحات ذات حمولة أخلاقية فيها، ولقد أثار المستشرقون مسألة توفر الإسلام على نظرية أخلاقية، أو عنايته على الأقل بالجانب الأخلاقي، فحكم بعضهم بنفي هذا الأمر بناء على عدم وجود مصطلح 'الضمير'، في اللغة العربية، على اعتبار أن لفظ 'الضمير الأخلاقي'، مؤشر على قوة حضور المسألة الأخلاقية أو ضعفها، ولقد خصص الأستاذ الجابري حيزا من كتابه 'العقل الأخلاقي العربي' لتفنيد هذا الادعاء، فبدأ بإيراد رأي جولدزيهر الذي ينفي هذا الترابط بين وجود مصطلح ما في لغة من اللغات بقوة الجانب الأخلاقي المتضمن في هذا المصطلح في تلك اللغة ، لكنه مع ذلك استدل على قوة الجانب الأخلاقي في الإسلام بأمور منها اعتباره أن لفظ القلب في اللغة العربية يقوم مقام الضمير، ثم استند الجابري إلى هذا الرأي فراح يجمع بعض موارد مصطلح القلب في القرآن الكريم والحديث الشريف ليثبت أن القلب هو محل الشعور الأخلاقي، كما أورد مصطلحات أخرى تدل كلها على ما يصطلح عليه بالضمير الأخلاقي، كمصطلح الوازع، والنفس اللوامة، ليخلص إلى أنه" لا ألفاظ اللغة العربية ولا المفاهيم التي شيد عليها الفكر العربي باختلاف اتجاهاته وتياراته، لا أحد منهما كان يفتقد إلى ما يصلح أن يكون أساسا للأخلاق بالمعنى النظري الفلسفي الذي نجده في الفكر اليوناني أو الفكر الأوروبي"، إلى أن يقول: "لا اللغة ولا مفهوم العقل في الثقافة العربية ولا غياب أي لفظ عن مجالها التداولي، لا شيء من ذلك يمكن اعتباره عائقا أمام قيام 'علم أخلاق 'بالمعنى اليوناني وبالمفهوم الحديث والمعاصر في هذه الثقافة[1]" يقول ذلك وإن كان يقرر تأخر قيام نظرية أخلاقية من هذا النوع في الثقافة العربية الإسلامية، لكنه يرجع أسباب هذا التأخر إلى عوامل أخرى.

[1]- العقل الأخلاقي العربي ص: 122.

أما قيمة مصطلح العقل التي أشار إليها الجابري هنا، فإن عدم التدقيق في استعماله، أفضى إلى مجموعة من الإشكالات على مستوى الفكر والفقه والأخلاق بحسب ما يراه الأستاذ طه عبد الرحمن، وأكتفي هنا بالإشارة إلى ما يتعلق بالجانب الأخلاقي وتأثره بسوء التدقيق في معنى مصطلح العقل، فقد عقد فصلا ل 'إبطال مسلمات النظرية الأخلاقية غير الإسلامية'، ومنها ' مُسلمة الفرق بين العقل والشرع'، التي يرى أنها حدثت بعيدا عن النص الشرعي، وذلك بعد الاحتكاك بالفكر اليوناني، فأضرت كثيرا بالفكر والفقه الإسلاميين، ثم يبطل مسلمة أخرى هي 'مسلمة الفرق بين العقل والقلب'، ليقرر أن العقل فعل للقلب، وأنه لم يثبت في النص الشرعي قرآنا وسنة تشييء العقل، بل "جاء فعل عَقَلَ فيها مسندا إلى القلب بوصفه الفعل الذي يختص به كما تختص العين بفعل النظر وتختص الأذن بالسمع، فيكون الواقع في تشييء العقل كمن يقع في تشييء النظر أو السمع، أي يكون كمن يجعل النظر ذاتا قائمة في العين . . . "[1].

يخلص إلى أن " العقل فعل قلبي صريح، وكل فعل قلبي هو فعل خلقي تتحدد به إنسانية صاحبه، ولا عبرة بحكم على الفعل لا يراعي حصول الثمرة الخلقية"[2].

ثم يقرر أن الفصل "بين العقل والقلب أفضى إلى الغلو في 'تفقيه' الممارسة الدينية، والمراد بالتفقيه هو التقنين الفقهي لأفعال المكلفين بما يجعل الاعتبار فيها أساسا لظاهر موافقتها للأحكام المقررة، مع إهمالالمعاني الخُلُقية التي تنطوي فيها والتي لو تصورنا هذه الأحكام مجردة من إفادتها، لصارت أحكاما لاغية"، ثم يبين أن إهمال القيم الخلقية في الأحكام الفقهية أدى إلى الوقوع في محذورين"أحدهما قصر الأخلاق على جزء محدود من أفعال المكلفين، وفي هذا جهل بحقيقة الأخلاق[. . .]والمحذور الآخر، اعتبار الأخلاق من المقاصد الكمالية وفي هذا سوء فهم لحقيقة الدين[3]".

نلاحظ اتفاقا بين المفكرين(الجابري وطه عبد الحمن) بخصوص محورية مصطلحي العقل والقلب في المسألة الأخلاقية، رغم اختلاف الرؤية التي يصدران عنها، وذلك دليل على قدرة المصطلح القرآني على البناء المفاهيمي القوي الموحد، كما لا نملك إلا أن نعترف أن ما أشار إليه

---

[1]- سؤال الأخلاق ص: 152- 153.

[2]- نفسه 154.

[3]- سؤال الأخلاق 153- 154.

الأستاذ طه عبد الرحمن بخصوص المحذورين الناتجين عن القصور في تدقيق المصطلحات الأصل في الأخلاق، هي من أسباب أزمة القيم التي يشكو منها المسلمون على اختلاف مستوياتهم.

المقدمة الثالثة: سأتناول مسألة حضور المصطلح القرآني في علم الأخلاق، لا باعتباره محورا خاصا من محاور هذا البحث، بل سيتخلل المناقشات والقضايا التي سيعالجها هذا البحث، ثم أخلص في النهاية إلى خلاصات أجمعها من ثناياه.

وأشير إلى أنني سأركز على الأخلاقيين الذين ينتمي عطاؤهم إلى الجانب النظري من الأخلاق، لأنهم محل مجمل القضايا التي سيتناولها هذا البحث، لثلاثة اعتبارات:

- الأول: يتمثل في أن التأليف في الأخلاق بالمفهوم العملي لم يكد يحيد في مصطلحاته عن القرآن الكريم والحديث الشريف، لأنه استمد منهما مباشرة مفاهيمه وأحكامه ومصطلحاته.

- الثاني، أنه لم يعرف هذا القلق في الانتماء بالشكل الذي حدث مع علم الأخلاق، كما سبق بيانه في التمهيد، بل ظل التأليف فيه مستقلا إلى درجة كبيرة بعد أن كان مضمنا، ولا يزال، في بعض أبواب الحديث والفقه.

- الثالث: أن هذا النوع من التأليف في الأخلاق لم يملك القوة الكافية لتوجيه مسار الأمة، خاصة على المستوى الجماعي والاجتماعي، لأنه تأليف موجه للأفراد من جهة، ولأنه لم يصدر عن رؤية شمولية واضحة، بل تناول الأخلاق الإسلامية بشكل مجزء، فحدث له ما حدث للمصطلحات القرآنية التي لم يتم فهمها في السياق العام للتنزيل، ولم تدقق مفاهيمها وتنظم في أنساق قادرة على توضيح الرؤية التي يحملها الوحي، قرآنا وسنة، للكون والإنسان.

وهذه القوة، قوة توجيه الأمة، يفترض أن تكون للفكر الأخلاقي الذي حان الوقت، للعناية باستخراجه واستكمال بنائه.

أولا: تعريف علم الأخلاق:

لتعريف المصطلح المركب، علم الأخلاق، نحتاج إلى معرفة معنى الأخلاق، أما معنى العلم، فأتجاوزه هنا لاعتبارات مقامية.

الأخلاق جمع خلق، قال ابن فارس: " الخاء واللام والقاف أصلان: أحدهما تقدير الشيء والآخر مَلَاسَةُ الشَّيْءِ"، ثم قال: " ومن ذَلكَ الْخُلُقِ، وَهي السَّجِيَّةُ، لأَن صَاحِبَهُ قد قُدِّرُ عَلَيْهِ"[1].

وقال الزمخشري : " وله خلق حسن وخليقة وهي ما خلق عليه من طبيعته، وتخلّق بكذا. وخالق الناس ولا تخالفهم. وهو خليق لكذا: كأنما خلق له وطبع عليه[2]".

وجاء في لسان العرب: " الخُلُقُ بضم اللام وسكونها وهو الدِّين والطبْع والسجية، وحقيقته أَنه لِصورة الإِنسان الباطنة وهي نفْسه وأَوصافها ومعانيها المختصةُ بِها بمنزلة الخَلْق لصورته الظاهرة وأَوصافها ومعانيها ولهما أَوصاف حسَنة وقبيحة والثوابُ والعقاب يتعلّقان بأَوصاف الصورة الباطنة أَكثر مما يتعلقان بأَوصاف الصورة الظاهرة"[3].

وقال التهانوي عن المعنى الاصطلاحي للخلق: "الخلق: بضمّتين وسكون الثاني أيضا في اللغة العادة والطبيعة والدين والمروءة والجمع الأخلاق. وفي عرف العلماء ملكة تصدر بها عن النفس الأفعال بسهولة من غير تقدّم فكر وروية وتكلّف. فغير الراسخ من صفات النفس كغضب الحليم لا يكون خلقا وكذا الراسخ الذي يكون مبدأ للأفعال النفسية بعسر وتأمّل كالبخيل إذا حاول الكرم وكالكريم إذا قصد بإعطائه الشهرة، وكذا ما تكون نسبته إلى الفعل والترك على السواء كالقدرة وهو مغاير للقدرة بوجه آخر أيضا"[4].

من خلال هذه التعاريف يتضح أن الأصل في الخلق أنه غير مكتسب، وأنه سجية للنفس، وقدر، وأنه صورة الإنسان الباطنة التي توازي وتقابل صورته الظاهرة.

---

[1]– ابن فارس– مقاييس اللغة /خلق.

[2]– أساس البلاغة/خلق.

[3]. – ابن منظور– لسان العرب/خلق

[4]– كشاف اصطلاحات الفنون.

وهذا الاستنتاج يضعنا أما السؤال الذي كثيرا ما أثير عند القدماء والمحدثين، وهو يتعلق بمصدر الأخلاق، أو مصدر الشعور الأخلاقي، وهذا سؤال تناوله الفلاسفة والأخلاقيون باستمرار، وباختصار أشير إلى الآراء في الأجوبة عن هذا السؤال:

-هناك من رأى بأن مصدر الشعور الأخلاقي هو الغريزة، بمعنى أن الأخلاق من الأمور التي فُطر عليها الإنسان، ومعناه أن الله تعالى زودنا بأداة نحكم بها على الأشياء، ونرى حسنها وقبحها تماما كما زودنا بالعين لنميز بها بين المرئيات المادية.

-وهناك من يرى بأن الأخلاق تكتسب بالتربية، وبالتوجيه (الديني أو الاجتماعي. . .)، وربما قال بعض الفلاسفة إن الأخلاق تكتسب بالتجربة والترقي في المدارك والانتقاء من خلال هذه التجربة لما يصلح وتجاوز ما لا يصلح على مستوى الفعل الخلقي.

وسأناقش هذه الآراء بعد إيراد كلام مسكويه(ت. .)من الأخلاقيين القدماء، باعتباره أول من تصدر في بعض فروع الفلسفة على الفلاسفة والأخلاقيين المسلمين، "وخاصة في ميدان الأخلاق، لأن من سبقه من فلاسفة الإسلام اهتموا إما بالطبيعيات والرياضيات وخاصة الكندي، وإما بالمنطق والإلهيات كالفارابي، وإما بأخبار الفلاسفة كأبي سليمان المنطقي، وظلت دراسة الأخلاق بحثا ثانويا في أبحاثهم الفلسفية، إلى أن جاء مسكويه، فجعلها موضوعا أساسيا هذب البحث فيه بوضع أصوله النظرية والعملية خاصة في كتابيه: تهذيب الأخلاق، والسعادة[1]".

وكلام الراغب الأصفهاني باعتباره يمثل المنهج الوسط بين الاستفادة من علوم عصره مع احتكامه إلى النص الشرعي.

كما سأعتمد في مناقشة هذه القضية، خاصة كلام كل بعض المفكرين المعاصرين، ليتسنى في الوقت نفسه المقارنة بين العصرين القديم والجديد بهذا الشأن.

لقد ذكر مسكويه هذه الآراء، في الإجابة عن مصدر الأخلاق، بعد أن عرف الخلق بأنه حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية، فقال: " وهذه الحال تنقسم إلى قسمين: منها ما يكون طبيعيا من أصل المزاج، كالإنسان الذي يحركه أدنى شيء نحو غضب[. . .]، ومنها ما يكون

[1]- عماد الهلالي- في مقدمة تحقيقه لكتاب تهذيب الأخلاق لمسكويه. ص 156.

مستفادا بالعادة والتدريب، وربما كان مبدؤه الفكر، ثم يستمر عليه أولا فأولا حتى يصير ملكة وخلقا"[1].

ثم بين أقوال الفلاسفة في اعتبار الخلق طبيعيا أو مكتسبا، واختار رأيا يفهم منه أن الخلق مكتسب، ولكن القدرة على تقبل الخلق طبع يتفاوت فيه الناس، يقول بعد بيان جملة اختلافات في هذا الشأن: " ثم اختلف الناس أيضا اختلافا ثانيا فقال بعضهم: من كان له خلق طبيعي لم يتنقل عنه، وقال آخرون: ليس شيء من الأخلاق طبيعيا للإنسان. ولا نقول إنه طبيعي، وذلك أنا مطبوعون على قبول الخلق، بل نتنقل بالمواعظ والتأديب إما سريعا وإما بطيئا. وهذا الرأي الأخير هو الذي نختاره[2]"

ثم علل اختياره قائلا: "ولأن الرأي الأول يؤدي إلى إبطال قوة التمييز والعقل، وإلى رفض السياسات كلها، وترك الناس همجا مهملين، وإلى ترك الأحداث والصبيان على ما يتفق أن يكونوا عليه من غير سياسة ولا تعليم، وهذا ظاهر الشناعة جدا[3]".

ويبين أنه في رأيه هذا يستند إلى رأي أرسطو الذي " بين في 'كتاب الأخلاق' وفي 'كتاب المقولات' أيضا أن الشرير قد ينتقل بالتأديب إلى الخير، ولكن ليس على الإطلاق، لأنه يرى أن تكرير المواعظ والتأديب وأخذ الناس بالسياسات الجيدة الفاضلة، لا بد أن يؤثر ضروب التأثير في ضروب الناس، فمنهم من يقبل التأديب ويتحرك إلى الفضيلة بسرعة، ومنهم من يقبله ويتحرك إلى الفضيلة بإبطاء[4]".

ثم إن مسكويه يبين القدر الطبيعي في هذا التخلق بقوله إن الإنسان في انتقاله في مراتب قبول هذه الآداب له "طريق طبيعي، يتشبه فيها بفعل الطبيعة، وهو أن ينظر في هذه القوى التي تحدث فينا أيها أسبق إلينا وجودا، فيبدأ بتقويمها ثم بما يليها على النظام الطبعي، وهو بين ظاهر، وذلك أن أول ما يحدث فينا هو الشيء العام للحيوان والنبات كله".

---

[1]- مسكويه- تهذيب الأخلاق و الأعراق –ص: 265.

[2]- نفسه.

[3]- نفسه.

[4]- تهذيب الأخلاق ص: 267.

إلى أن يقول: "ولذلك يجب أن نبدأ بالشوق الذي يحصل فينا للغذاء فنقومه، ثم بالشوق الذي يحدث فينا إلى الغضب ومحبة الكرامة فنقومه، ثم بآخرها الشوق الذي يحصل فينا إلى المعارف والعلوم فنقومه، وهذا الترتيب الذي قلنا إنه طبيعي، إنما حكمنا فيه بذلك لما يظهر فينا من أول نشوئنا[1]"، وهكذا يشير إلى هذا التدرج الطبيعي الذي يوصل الإنسان إلى الإنسانية ومراتب الكمال والتميز عن الحيوان.

وللإشارة فإنه في اعتماده لهذه القوى الثلاث ينسجم مع تقسيمه لقوى النفس إلى ما سماه بالقوة الناطقة/ الملكية ، ومحلها الدماغ، والقوة الشهوية/ البهيمية، وآلتها من الجسم الكبد، والقوة الغضبية/ السبعية، وآلتها بحسب أعداد هذه القوى وكذلك أضدادها التي هي الرذائل. وهذا تقسيم مأخوذ من فلاسفة اليونان.

كما تجدر الإشارة إلى أنه قد يسمي كل واحد من هذه القوى، خلقا، ونادرا ما يجمعها على أخلاق، يقول: "وأنت تكتفي في تعلم الأخلاق بأنها قوى ثلاث متباينة، تقوى إحداها أو تضعف بحسب المزاج أو العادة أو التأديب[2]"، أما اللفظ الذي يستعمله بكثرة للحديث عن الأخلاق بمعنى الصفات، فهو الفضائل في مقابل الرذائل.

ثم يبين أن القوة الناطقة إذا غلبت صدر عنها العلم وتتبعه الحكمة، وإذا انقادت لها النفس البهيمية حدثت عن ذلك فضيلة العفة وتتبعها فضيلة السخاء, اما إذا كانت القوة السبعية بدورها معتدلة ومنقادة للنفس الناطقة حدثت صفة الحلم وتبعتها الشجاعة.

ولذلك تكون أجناس الفضائل بحسب ما ينسبه إلى الحكماء هي الحكمة والعفة والشجاعة والعدالة التي قال إنها فضيلة للنفس تحدث فيها عند اجتماع الفضائل الثلاث السابقة.

ثم تتفرع عن كل واحدة من هذه الفضائل أنواع أخرى، كما تأتي في مقابل كل فضيلة رذيلتان، لأنه يعتمد رأي من يقول من الفلاسفة إن كل فضيلة هي وسط بين رذيلتين[3].

---

[1]- نفسه 269- 270.

[2]- تهذيب الأخلاق ص: 248.

[3]- نفسه - الصفحة وما بعدها –بتصرف. 248

قد أطلت في الاقتباس من كلام مسكويه بخصوص تعريف الأخلاق ومصدرها، وذلك بغرض الإحاطة قدر الإمكان بالرأي الذي يتبناه بهذا الخصوص ، وببعض مصطلحاته التي تتراوح بين ما هو أصيل وماهو منقول.

أما الراغب الأصفهاني(المتوفى 502هـ) فيقول متحدثا عن معنى الأخلاق ومصدرها وإمكان خضوعها للتغيير:

"والخَلْقُ والخُلْقُ في الأصل واحد، كالشّرب والشّرب، والصّرم والصّرم، لكن خصّ الخلق بالهيئات والأشكال والصّور المدركة بالبصر، وخصّ الخلق بالقوى والسّجايا المدركة بالبصيرة"[1]

ثم عقد فصلا من كتابه الذريعة إلى مكارم الشريعة، لمسألة 'إمكان تغيير الخلق 'ونقل فيه قول من "قال: إن اللَّه تعالى خلق الأشياء على ضربين:

أحدهما: بالفعل ولم يجعل للعبد فيه عملًا، كالسماء والأرض والهيئة والشكل.

والثاني: خلقه خلقة ما وجعل فيه قوة، ورشح الإنسان لإكماله، وتغيير حاله وإن لم يرشحه لتغيير ذاته، كالنواة التي جعل فيها قوة النخل. وسهل للإنسان سبيلًا إلى أن يجعله بعون اللَّه نخلة، أو أن يفسده إفسادًا. قال: والخُلق من الإنسان يجري هذا المجرى في أنه لا سبيل للإنسان إلى تغيير القوة التي هي السجية، . . . لكن الناس في غرائزهم مختلفون، فبعضهم جبلوا جبلة سريعة القبول، وبعضهم جبلوا جبلة بطيئة القبول، وبعضهم في الوسط، وكل لا ينفك من أثر القبول وإن قل[2]. "

ثم وفق بين الرأي معبرا عن رأيه في القضية بقوله: "وأرى أن من منع من تغيير الخلق فإنه اعتبر القوة نفسها، وهذا صحيح فإن النوى محال أن ينبت الإنسان منه تفاحًا. ومن أجاز تغييره فإنه اعتبر إمكان ما في القوة إلى الوجود وإفساده بإهماله كالنوى فإنه يمكن أن يتفقد فيجعل نخلًا وأن يترك مهملا حتى يتعفن ويفسد، وهذا صحيح أيضًا. فإذن اختلافهما بحسب اختلاف نظريهما[3]. "

نأخذ من كلامه أمرين:

---

[1] .- الذريعة إلى مكارم الشريعة- الراغب الأصفهاني ص: 96

[2] - نفسه 99

[3] - نفسه.

الأول شبه الخُلق بالخَلق، وأنهما من صنع الله تعالى.

الثاني: أن الخلق بالنظر إلى إمكان تغييره ينقسم إلى قسمين، فالموجود منه بالفعل لا يمكن تغييره مطلقا، ولكن يمكن تغييره نسبيا بقوة التهذيب والرعاية.

- سأنتقل إلى رأي مفكرين معاصرين هم الأستاذ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني والأستاذ المرحوم محمد عابد الجابري، والأستاذ طه عبد الرحمن كما سبق أن أشرت.

يرى عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني أن مدارك الأخلاق وأسسها فكرية علمية، وفطرية وجدانية، وإيمانية.

أما كونها فكرية علمية "فلأن مكارم الأخلاق يؤيدها الفكر العلمي ويستحسنها"، "ولأن رذائل الأخلاق يؤيد العلم اجتنابها، ويستقبحها ويحث على اجتنابها ويحرم ما يحرم منها".

" وأما كونها فطرية وجدانية فلأن في فطر الناس الوجدانية ميلا إلى مكارم الأخلاق، ورغبة داخلية بالتزامها وممارسة كل سلوك تدفع إليه، ولأ في فطر الناس الوجدانية نفورا واشمئزازا من رذائل الأخلاق. . . ".

وأما كونها إيمانية فلأن القاعدة الإيمانية تلزم بطاعة الله في أوامره ونواهيه. . . "[1]، والأخلاق تدخل في باب الأوامر والنواهي.

الأستاذ طه عبد الرحمن يقرر في بداية كتابه 'سؤال الأخلاق' أن: "الأخلاقية هي ما به يكون الإنسان إنسانا، وليست العقلانية كما انغرس في النفوس منذ قرون عديدة[2]".

ثم يقرر أن ما يسميه الأخلاقية وهي تعني عنده 'مبدأ طلب الصلاح' هي وحدها التي "تجعل أفق الإنسان مستقلا عن أفق البهيمة[3]"أما العقلانية التي مجدها دعاتها باعتبارها الفاصل بين الإنسان والحيوان، فهي "على قسمين كبيرين، فهناك العقلانية المجردة من الأخلاقية ، وهذه يشترك فيها الإنسان مع البهيمة، وهناك العقلانية المسددة بالأخلاقية، وهي التي يختص بها من دون سواه[4]".

---

[1]- الأخلاق الإسلامية وأسسها ص 22.

[2]- طه عبد الرحمن- سؤال الأخلاق ص: 14.

[3]- نفسه.

[4]- نفسه.

وإذن فطه عبد الرحمن يقرر أن صفة الإنسانية لا تنفك عن صفة الأخلاقية، وأن أصل الأخلاقية هو الدين، كما سيأتي قريبا.

قال عند حديثه عن العقلانية الحديثة إنها تسعى إلى إنشاء بنية أخلاقية جديدة للإنسان تقوم فيها الأصول الاصطناعية الأولى التي تضعها لهذه البنية الأخلاقية الجديدة مقام الأصول المعنوية والروحية المبثوثة بالخلقة في نفس الإنسان، أي أن تقوم مقام ما يسميه الدين ب 'معاني الفطرة الإنسانية[1]".

نستخلص مما سبق أنه يعتبر مصدر الأخلاق هو الفطرة، والفطرة تلقت هذا الشعور الأخلاقي من الدين، فالدين إذن هو مصدر التوجيه الأخلاقي.

"وهكذا تكون أسباب الأخلاق موصولة بأسباب الدين، حتى أنه لا حدود بينة مرسومة بينهما[2]"، ويعلل الترابط بين الدين والأخلاق قائلا بعد ذكر حقيقة ارتباط وجود الدين بوجود الإنسان عند جميع الفلاسفة: " ظهور الدين مقرون بظهور الإنسان، ومتى صح الاقتران بين الدين والإنسان في الأصل، فإنه يكون منى العبث الشك في أن ملكات الإنسان قد أشربت بالروح الدينية إلى حد بعيد، حتى إنه لا يكاد يصدر عن هذه الملكات فعل من الأفعال يخلو من أثر قريب أو بعيد لهذه الروح، والأخلاق إنما هي أول الأفعال التي تصدر عن ملكات الإنسان، فتكون أكثر من غيرها تغلغلا في الحقيقة الدينية، بحيث لا مجال للانفكاك عنها".

ننتقل إلى مفكر معاصر آخر هو الأستاذ المرحوم محمد عابد الجابري، فهو بعد إيراد جملة من المعاني اللغوية للفظ الخلق، يقرر أن هناك فرقا -بناء خاصة على كلام الجرجاني- بين الخلق والسلوك، فالسلوك صادر عن الخلق، والخلق الذي هو هيأة في النفس، هو منبع للسلوك ومصدر له، ذلك أن "الكرم خلق للنفس، بينما إكرام هذا الضيف أو ذاك فهو سلوك، والفرق أن الكرم صفة راسخة في النفس، أما سلوك مسلك الكريم فهو فعل صادر عن تلك الصفة[3]"، وقال قبل ذلك: "وهذا شيء لا بد من استحضاره عند دراستنا للنصوص القديمة، لأننا في لغتنا المعاصرة، لا نقيم – في الغالب- هذا التمييز بين الأخلاق والسلوك، ذلك لأن السلوك في اللغة من: سلك

---

[1]- سؤال الأخلاق- ص: 122.

[2]- نفسه ص 25.

[3]- العقل الأخلاقي العربي ص: 33.

طريقا، وسلك الخيط في الإبرة، ومعناه الدخول والإدخال، ثم نقل مع المتصوفة خاصة إلى معنى 'السعي إلى الله'، وقوام هذا السعي، تهذيب الأخلاق، وإذن فالسلوك في الحقل الثقافي العربي القديم هو ممارسة الفعل وليس الفعل ذاته".

ثم قام بجولة في دلالة لفظ الأخلاق عند كل من مسكويه والراغب الأصفهاني والماوردي، ليخلص إلى أن الخلق استعمل في الحديث الشريف خاصة وفي اللغة بأربعة معاني[1]، وأن العلاقة اللغوية بين دلالة الخَلق والخُلُق "تلقي بظلالها على معنى الأخلاق، فتجعلها تحمل معنى الطبع والعادة"، ولكنه يقرر أن هناك تمييزا "بين الخلق الفطري أو الموهوب أو الغريزي الخ وبين الخلق المكتسب بالتدريب والتعلم".

هذه الآراء ، تكشف لنا أهمية تحديد معنى مصطلح الخلق، وعلاقة الخلق بالأخلاق في الاستعمال العربي القديم، كما تبين لنا الجانب الإشكالي الذي تدل عليه هذه المناقشات التي ظلت مستمرة إلى عصرنا، ما يدل على أن هذا الإشكال على مستوى المصطلح مازال قائما، وأنه يشكل جانبا مما يسمى بأزمة القيم بمصطلح العصر.

ومما يزيد الإشكال عمقا في عصرنا، دخول مصطلح القيم إلى هذا الحقل الدلالي المتعلق بما هو أخلاقي تربوي، ذلك أنه إذا كان مصطلح الأدب والتأديب زاحم مصطلح الأخلاق في فترة زمنية سابقة، إلا أنه سرعان ما انفصل المصطلحان ليخصص الأول بأدب اللسان[2]، لتتأكد قوة مصطلح الأخلاق على منافسه بعد عصور كان للأدب قوة تضاهي قوة مصطلح الأخلاق، كما سيأتي.

ولقد خلص الجابري إلى أن الشائع في ما يسميه الموروث اليوناني هو لفظ الأخلاق، وفي 'الموروث الفارسي' لفظ الآداب، أما في الموروث العربي الخالص فالشائع هو الأدب مع التمييز بين أدب اللسان وأدب النفس .

---

[1]- هي: الغريزة أو الهيأة التي في النفس ويصدر عنها الفعل بلا روية ويقابلها باللغة الفرنسية لفظ caractère- - وعلى الحالة المكتسبة التي هي قريبة من معنى المزاج(tempérament)- ويستعمل بمعنى الفعل الصادر عن تلك الحالة ويقترب من معنى السلوك- وقد يستعمل اسما للهيئة والفعل معا- انظر تفصيل هذه المعاني في الصفحتين 35- 36.

[2]- أو ببعض السنن والفضائل الخاصة بالعبادات مثل آداب تلاوة القرآن. . .

أما في الاستعمال الإسلامي الخالص فيرى أن هناك ترددا " بين اللفظين مع نوع من التخصص: يرد لفظ 'أدب' عندما يتعلق الأمر ب'الآداب الشرعية'(آداب الوضوء-آداب الصلاة-آداب الصدقة-آداب تلاوة القرآن الخ)، بينما يرد لفظ 'أخلاق' عندما يتعلق الأمر بالمحمود(والمذموم) من السلوك الفردي والجماعي[1]". ويبين أن الفرق بين المصطلحين عموما يتمثل في أن الأدب يطلق على ما هو موضوع تعلم، بخلاف الأخلاق الذي يحمل معنى العادة والسجية.

وكان قد علل أسباب هذا الاختلاف بين هذه الاستعمالات، وتاريخها بما لا مجال لإيراده هنا[2].

هذا عن مصطلح الأدب، أما مصطلح القيم، فما زالت له قوته النابعة من جدته أولا ومن أصل ترجمته من مصطلح ينتمي إلى الحضارة الغالبة ثانيا، وهو يحيل في كثير من استعمالاته إلى تداخل بينه وبين مصطلح الأخلاق، ولذلك سأحاول تبين الفرق بين المصطلحين عند من يميز بينهما، ثم أحتكم إلى القرآن الكريم لتسليط الضوء على هذه القضية.

وأول ما سأشير إليه هو رأي الأستاذ الجابري في الفرق بين المصطلحين، لأن هذا الرأي يشتمل على تحديدات وتدقيقات غاية في الأهمية.

فهو يورد تعريف التهانوي للقيمة وللثمن، ويبين أن "الفرق بين القيمة والثمن: القيمة ما قوّم به مقوّم. والثّمن قد يكون مساويا للقيمة وقد يكون زائدا منه وقد يكون ناقصا عنه "وبناء على هذا التعريف يقول: " والحاصل أن ما يقدره العاقدان(البائع والمشتري) بكونه عوضا للبيع في عقد البيع يسمى ثمنا، وما قدره أهل السوق وقرروه وروجوه في معاملاتهم يسمى قيمة" ثم يستنتج بناء على ذلك هذه النتائج:

-"ثمن الشيء يحدده البائع والمشتري"

-"وهو موضوع للمزايدة، ويتحكم فيه قانون العرض والطلب"

-" قد لا يعكس القيمة الحقيقية للشيء"

- "الثمن فردي. . . **أما القيمة فهي اجتماعية**"

---

[1]– العقل الأخلاقي العربي ص: 52.

[2]– انظر ما قاله بهذا الخصوص في كتاب العقل الأخلاقي العربي ص 42 وما بعدها.

وبناء على ما سبق يقول: " وهكذا نستطيع أن ندعي أن لفظ 'قيم' له علاقة بالمثل الأخلاقية والاجتماعية، مادامت قيم الأشياء مستقلة عن إرادة الأفراد ومساوماتهم، وبالتالي ثابتة أو شبه ثابتة[1]".

وبعد ذلك يتحدث عن الأصل اللاتيني للكلمة المقابلة لمصطلح القيم (VALEUR-VALOR-VALERE)في المعاجم اللاتينية، هذا الأصل المتمثل في الدلالة على معنى 'شجاع في القتال'، ثم بين تطوره الدلالي إلى معنى القيمة أو ثمن الشيء وصولا إلى التقدير الذي يحضى به الشيء لاقترابه من النموذج المثالي لذلك الشيء، وبين أن كلمة القيم لم تنتقل إلى المجال التداولي الأخلاقي إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بعد أن استقرت في المجال الاقتصادي كمصطلح دال على الخاصية التي للشيء والتي بها يكون ملبيا للحاجة البشرية، ما يسمى بالقيمة الاقتصادية[2].

ويقرر أن "القيمة الأخلاقية، بهذا المعنى حكم شخصي يتطابق بدرجة ما مع ما يراه المجتمع خيرا بإطلاق[3]"

ومن ثم يتحدث عن القيم المثالية التي هي معايير لأحكام القيمة، ولأنها من صنع المجتمع، وهي متعددة ومرتبة بحسب ما يراه كل مجتمع، فإن الحديث غالبا عنها يرد بصيغة الجمع، لأن الأمر يتعلق بسلم للقيم أو نظام للقيم يرتبها كل مجتمع من الأقوى إلى الأضعف بحسب عقيدته و تجربته الاجتماعية وبنيته.

ثم يخلص إلى أن "نظام القيم ليس مجرد خصال حميدة يتصف بها الفرد، فتكون خلقا، بل هو بالدرجة الأولى معايير للسلوك الاجتماعي والتدبير السياسي، ومحددات لرؤية العالم واستشراف المطلق[4]".

والحق أن ما أثبته هنا ينسجم مع ما جاء في المعاجم اللغوية[5]، حتى لكأنه يتبنى حرفيا ما يتعلق بتعريف القيم وبأنها معايير للحكم الشخصي المتطابق مع ما يراه المجتمع خيرا بإطلاق. . .

---

[1]- العق الأخلاقي العربي ص 54.

[2]- نفسه 55.

[3]- نفسه.

[4]- الفكر الأخلاقي العربي- ص: 56.

[5]- انظر مثلا: le petit Robert- valeur.

لكنه، عندما يقرر أن المصطلح لم يستعمل في الجانب الأخلاقي إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، يغفل ما جاء في معظم المعاجم الفرنسية من أن أصل الكلمة في اللغة اللاتينية يعود إلى القرن الحادي عشر، وكان يعني: "ما به يستحق شخص الاحترام[1]"، كما يأتي من معانيها الشجاعة(أو الإقدام)، كما تشير المعاجم إلى أن اللفظ استعمل أيضا في القرن الثالث عشر بمعنى ثمن الشيء، أو بمعنى القابلية للقياس في الشيء المعروض للتبادل ، ثم تطورت دلالة المصطلح ليستعمل في المجال الاقتصادي مع بداية القرن الثامن عشر، ليصبح مستقرا في المجال الأخلاقي ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر وهو ما سبق إيراده ضمن كلام الأستاذ الجابري، والذي يتبنى من خلاله نظرة الفلاسفة الغربيين إلى القيم.

من خلال ما سبق يتضح أن لفظ القيمة كان على الدوام في اللغة اللاتينية محملا بدلالة معيارية أخلاقية، باعتبار ما كان لمفهوم الشجاعة أو الإقدام في العصور السابقة من دلالة على جملة من الصفات الإيجابية التي كانت معيارا للتفاضل بين الناس.

وأما الآن فقد حان وقت محاولة الاقتراب من معنى القيم في اللغة العربية وفي القرآن الكريم، لنقف على علاقة هذه الدلالة بمفهوم الأخلاق.

أما في الاصطلاح القرآني، فنجد أن الراغب الأصفهاني حدد للمادة عدة معاني ترجع إلى أقسام كبرى تتلخص في : القيام بالشخص، والقيام للشيء. والقيام الذي هو على العزم على الشيء والقيام الذي هو بمعنى الثبات على الشيء.

-فالقيام بالشخص ينقسم إلى قسمين، فيكون إما بتسخير أو باختيار، الأول مثل قوله تعالى: (مِنْها قائِمٌ وَحَصِيدٌ) هود/ 100. ومن القِيَامِ الذي هو بالاختيار قوله تعالى: (أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ساجِداً وَقائِماً) الزمر/ 9.

-وهذا القيام بالشخص يكون بمعنى الحفظ، منه قوله تعالى: (أَفَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ) الرعد/ 33.

-**و القائم الحافظ لكلّ شيء، والمعطى له ما به قِوَامُهُ**، وذلك هو المعنى المذكور في قوله: (الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى) طه/ 50.

[1]- نفسه.

-والقيام للشيء هو **المراعاة للشيء والحفظ له**، ومن المراعاة للشيء قوله: (كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَداءَ بِالْقِسْطِ) المائدة/ 8 ، وقوله(قائِماً بِالْقِسْطِ) آل عمران/ 18 . أي حافظا له.

- وإِقَامَةُ الشيء: توفية حقّه، منه قوله سبحانه: (قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لَسْتُمْ عَلى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْراةَ وَالْإِنْجِيلَ) المائدة/ 68 أي: توفّون حقوقهما بالعلم والعمل.

- والقِيَامُ والقِوَامُ: اسم لما يقوم به الشيء. أي: يثبت، كالعماد والسّناد: لما يعمد ويسند به

-ومن القِيَامِ الذي هو العزم قوله: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ) المائدة/ 6 ، وقوله: (يُقِيمُونَ الصَّلاةَ) المائدة/ 55 أي: يديمون فعلها ويحافظون عليها.

-ومن القيام على الشيء **الثبات على طلبه**، ومنه قوله: (إِلَّا ما دُمْتَ عَلَيْهِ قائِماً) آل عمران/ 75. أي: ثابتا على طلبه.

-كما أن من الاستعمالات القرآنية للمادة حسب الراغب:

+القيم، ومنه قوله: (دِيناً قِيَماً)الأنعام/ 161 ، أي: ثابتا مُقَوّماً لأمور معاشهم ومعادهم.

+ الوصف بالقيمة كما في قوله تعالى: (وَذلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ)، البينة/ 5، فَالْقَيِّمَةُ هاهنا اسم للأمّة القائمة بالقسط المشار إليهم بقوله: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ) آل عمران/ 110 .

+ واسْتِقَامَةُ الإنسان: لزومه المنهج المستقيم. نحو قوله: (إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا) فصلت 30

+والْإِقَامَةُ في المكان: الثبات.

+ المقيم بمعنى الدائم نحو: عَذابٌ مُقِيمٌ

+ وتَقْوِيمُ الشيء: تثقيفه، قال: (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) التين4 وذلك إشارة إلى ما خصّ به الإنسان من بين الحيوان من العقل والفهم، وانتصاب القامة الدّالّة على استيلائه على كلّ ما في هذا العالم. كان هذا جمعا لما جاء في كتاب المفردات من معاني للمادة[1].

وزاد السمين الحلبي (المتوفى سنة 756 ه)، بعد نقله عن الراغب معظم ما سبق، معنى القوام، قال: "والقوام بالفتح ما هو متوسط بين رتبتين، كقوله تعالى: (وكان بين ذلك قوامًا) الفرقان: 67.

[1]– الراغب الأصفهاني– مفردات غريب القرآن/قوم– بتصرف.

+والدين القيم في قوله: {دينًا قيمًا} النساء: 15، قيل: معناه ثابتًا لأمور معائشهم ومعادهم. وقرئ "قيمًا" وفيه وجهان؛ أحدهما: أنه مقصور من قيامًا، والثاني: أنه وصف على فعل نحو: لحم زيم وقوم عدى ومكان سوى وماء روى. وأصل قيم قيوم كميتٍ. قوله: (وذلك دين القيمة) البينة: 5 قال ابن عرفة: فجعلها مصدرًا كالصغر والكبر، وأنشد لكعب بن زهير:

فهم ضربوكم حين جرتم عن الهدى *** بأسيافهم حتى استقمتم على **القيم**

أي على الاستقامة.

كما أضاف معاني للمصطلح، منها استشهاده بنص حديثي، من ذلك قوله: "وقال أبو عبيدة: القيوم: القائم وهو الدائم الذي لا يزول، وقيل: هو القائم بأمور الخلق، يقال: فلان قائم بالأمر: أي حافظ له . . . وقوله: (من أهل الكتاب أمة قائمة) آل عمران: 113 أي متمسكة بدينها، وهم قوم آمنوا بموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم ومنه حديث حكيم بن حزامٍ: "بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا أخر إلا قائمًا[1]" أي متمسكًا بديني، قاله المبرد. وقال أبو عبيدٍ: معناه إلا ثابتًا على الإسلام"[2].

وخلاصة ما سبق أن مادة قوم تحيل على **الثبات والدوام والعزم والحفظ** .

وهذه المعاني كلها تنسجم مع مسمى القيم، ولا شك أن الذين ترجموا الكلمة اللاتينية الدالة على القيمة، أدخلوا هذه المعاني في الاعتبار، ذلك أن لفظ القيم كمقابله اللاتيني يحمل معنى الثمن المقوم به، كما يحيل على معاني الخير والجمال والمثل التي يسعى الناس إلى تحصيلها، كضمان لحفظ مصالح الأفراد والمجتمعات، ويعني أن القيم تتصف بالثبات وأنها مما يجب أخذه بعزم وعزيمة بعدم التساهل فيها حفظا لمقومات كل أمة وهويتها وما يقوم به أمرها.

من هنا نعود إلى الحديث عن القيم في علاقتها بالأخلاق عبر مستويات:

-الفرق بينهما

-أصلهما أو مصدرهما

-أسباب الأزمة يعيشها العالم على مستواهما

---

[1]- الطبراني- حديث رقم 3106- أورده الطحاوي في كتابه مشكل الآثار في باب مشكل ما روي عن حكيم بن حزام.

[2]- السمين الحلبي- عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ/قوم.

- دور التدقيق المصطلحي على ضوء الاصطلاح القرآني في الخروج مما بات معروفا ومعترفا به عبر العالم مما يسمى أزمة القيم.

فبخصوص الفرق بين القيم والأخلاق، يمكن ابتداء أن نعترف بأن مصطلح الأخلاق هو الأصل في الدلالة على مجاله، ذلك بسبب دلالته المباشرة في قوله تعالى (وإنك لعلى خلق عظيم) وقوله صلى الله عليه وسلم (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق).

ولكن لنؤكد الفرق بين المصطلحين، نحن مطالبون ببيان دلالة كل منهما، بمعنى، إذا كان القرآن والحديث استعملا لفظ الخلق والأخلاق، فهل معنى ذلك أنه لا يوجد حديث عن القيم - بالمعنى الذي يتم تداوله به اليوم-أو لفظ آخر معبر عن رتبة أخرى غير رتبة الأخلاق، أوشيء آخر هو إما من قبيل الأصل لهذه الأخلاق أو مصدرها، أو بعدها الاجتماعي إذا ثبت تخصيص الأخلاق بما هو فردي/ شخصي.

ذلك أن هناك من يستعمل الأخلاق والقيم بمعنى، وهناك من يرى أن القيم هي المبادئ التي تصدر عنها الأخلاق، وهناك من يرى أن الأخلاق هي الحالة التي للنفس، ومنها تصدر القيم، وهناك من يرى العكس، وهناك من يرى أن الأخلاق فردية بينما القيم تكون جماعية. . .

هذا التضارب مصدره جدة مصطلح القيم، إضافة إلى سبب بالغ الأهمية، ويمكن التعبير عنه بالإشكال المصطلحي النابع من منطلقات إيديولوجية، وقد يكون السبب أساسا متمثلا في أزمة القيم نفسها، بمعنى أن تباين المصطلحات دليل على عدم وضوح الرؤية بخصوص مفاهيم تلك المصطلحات، مثل ما قاله الأستاذ طه عبد الرحمن عن مصطلح الأخلاق: "ولقد بلغ اختلاف الفلاسفة-أو قل اختلاط أحكامهم-الغاية عندما تعدى موضوع الأخلاق الذي ينظرون فيه، إلى الاسم الذي يطلقونه عليه[1]".

وقال عند حديثه عن العقلانية الحديثة إنها تسعى إلى إنشاء بنية أخلاقية جديدة للإنسان ، وهي في سبيل ذلك" لا تقتصر على إسقاط القيم الأخلاقية الدينية، وإنما تتعداه إلى إسقاط الأصول الأخلاقية الدينية، ومعلوم أن الأصول الأخلاقية هي جملة المعايير والقيم الرئيسة التي تتولد منها باقي المعايير والقيم السلوكية تولد الفرع من الأصل، فلما كانت العقلية الانتظامية

[1]- سؤال الأخلاق ص: 17.

تسعى إلى إنشاء بنية أخلاقية جديدة للإنسان، فقد لزم أن تقوم الأصول الاصطناعية الأولى التي تضعها لهذه البنية الأخلاقية الجديدة مقام الأصول المعنوية والروحية المبثوثة بالخلقة في نفس الإنسان، أي أن تقوم مقام ما يسميه الدين ب 'معاني الفطرة الإنسانية".

وهذا الكلام ينطبق الآن تماما على ما تسعى إليه جهات عدة بخصوص مسمى 'القيم'.

وانتشار استعمال مصطلح القيم حاليا على مختلف الأصعدة، خاصة في المجال الأخلاقي والتربوي، ثم اختلاف تحديد وترتيب القيم من مجتمع لآخر ، مؤشران على مرحلة حاسمة في العالم كله، و ضمنه العالم الإسلامي، في سبيل بناء القيم الكفيلة إما توحيد القيم، وبالتالي فسح المجال لعولمة أخلاقية تختلط فيها الرؤى وتمحى الخصوصيات العقدية والحضارية للأمم، أو الكفيلة بمراجعة كل أمة لقيمها، وتحديد سلم لهذه القيم، بشكل يحدد ما هو مشترك بينها ومن شأنه الدفع بعملية التعايش و التعارف بمفهومه القرآني، من جهة، ويحتفظ بما يضمن خصوصية كل أمة لتتعامل به داخليا بشكل يحفظ لها هويتها واستقلاليتها العقدية والفكرية.

فما هو مفهوم القيم وما الفرق بينها وبين الأخلاق:

لقد رأينا في ما سبق أن معظم من تطرق لمعنى الخلق، فإنه اعتبره خَلقا بمعنى أنه قدر وسجية وطبع، لكنهم قالوا إنه قابل للتغيير وإلا امتنع معنى الأمر بالتربية والتأديب والتزكية والتربية، ولذلك تحدثوا عن الخلق كطبع، وعن القابلية لتغييره التي تختلف بحسب الأفراد كما رأينا مع مسكويه. وتحدث البعض في الأخلاق وقسموها إلى ما يوجد منها بالفعل، وإلى إمكان تغييره بالقوة مثل ما رأينا مع الراغب الذي ذهب إلى أن الخلق بالنظر إلى إمكان تغييره ينقسم إلى قسمين، فالموجود منه بالفعل لا يمكن تغييره مطلقا، ولكن يمكن تغييره نسبيا بقوة التهذيب والرعاية.

وخلاصة ما يمكن تقريره هنا ، وبناء على أن الخلق لم يرد في القرآن الكريم إلا مفردا، يمكن القول إن الخلق هو ما طبع عليه كل شخص على وجه العموم، فنقول هذا خلقه حسن، إذا اتصف بلين الجانب مع ما يترجم لين الجانب وحسن الخلق من محبة للآخرين ورحمة بهم

وتواضع لهم وتلبية دعواتهم وتلبية حوائجهم، وعكسه سيئ الخلق مع ما يعبر عن ذلك من جفاء وغلظة وخسة وتكبر. . .

أما الأخلاق، فهي مجموع ما تعارف عليه الناس واتفقوا على كونه حسنا أو سيئا، إما عقلا أو شرعا، مع تسجيل اتفاق العقل والشرع في كون العقل صنع الشارع، ومن ثم فاعتقاد من لا دين له في خلق أنه حسن وفي آخر أنه سيئ، فهو راجع إلى عقله في اعتقاده، أما في الحقيقة فهو راجع إلى الفطرة التي فطره الله عليها، وهي شرع سابق على وجوده كما تقرره آيات القرآن الكريم، منها قوله سبحانه وتعالى: (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ)الأعراف 172.

هذا عن مصطلح الخلق وجمعه الأخلاق، أما مفهوم القيم، يفهم من بعض ماجاء في كتاب طه عبد الرحمن، أن القيم تمثل ما أسماه بالمقاصد النافعة التي يصل إلى إدراكها ما يسميه 'بالعقل المسدد[1]'، قال: "ولما كانت المقاصد الدينية التي هي معان ثابتة وشاملة أجلب للنفع وأدفع للضرر من غيرها، لزم أن ينفتح للمتخلق بها طريق إدراك المقاصد النافعة، لأن هذا التخلق يلقي في فهمه ما يبصره بهذه القيم العليا"، ثم يقول: "فالعقل 'المسدد' (بفتح الدال وتشديده)هو إذن العقل الذي اهتدى إلى معرفة المقاصد النافعة[2]"

كما يفهم أيضا أن القيم الأخلاقية هي ما سماه بالأصول الأخلاقية الرئيسة في قوله: " ومعلوم أن الأصول الأخلاقية هي جملة المعايير والقيم الرئيسة التي تتولد منها باقي المعايير والقيم السلوكية تولد الفرع من الأصل، فلما كانت العقلية الانتظامية تسعى إلى إنشاء بنية أخلاقية جديدة للإنسان، فقد لزم أن تقوم الأصول الاصطناعية الأولى التي تضعها لهذه البنية الأخلاقية الجديدة مقام الأصول المعنوية والروحية المبثوثة بالخلقة في نفس الإنسان، أي أن تقوم مقام ما يسميه الدين ب 'معاني الفطرة الإنسانية".

---

[1]- العقل المسدد هو عنده العقل الذي اهتدى إلى معرفة المقاصد النافعة، وهو مرتبة تأتي بعدها مرتبة العقل المؤيَّد الذي بالإضافة إلى اهتدائه لهذه المقاصد النافعة، قد اهتدى إلى اهتدى إلى الوسائل الناجحة الموصلة إلى تحقيق المقاصد النافعةص 71- 73- بتصرف.

[2]- سؤال الأخلاق 70- 71.

والحق أن ما يفهم من كلامه في كتاب 'سؤال الأخلاق 'غير دال قطعا على أنه تحديد لمسمى القيم، لأنه يستعمل لفظ القيم في الأصول وفروعها، عندما يقول: " **ومعلوم أن الأصول الأخلاقية هي جملة المعايير والقيم الرئيسة التي تتولد منها باقي المعايير والقيم السلوكية تولد الفرع من الأصل**"، فهو احتفظ بالمعايير والقيم في الجملتين، فكأن ما يسميه غيره بالقيم التي تصدر عنها الأخلاق، يسميه بالأصول الأخلاقية ، وفروعها هي القيم السلوكية، وهذا يحيلنا على كلام سابق نقله الجابري عن الجرجاني بخصوص الفرق بين الأخلاق والسلوك، باعتبار الخلق هيئة للنفس يصدر عنها السلوك، وإذا كان الأمر كذلك فيبقى البحث عن معنى القيم وتحديد الفرق بينها وبين الأخلاق قائما.

وهنا يمكن اعتماد الفروق التي سبقت الإشارة إليها ضمن كلام الجابري ، فقد سبق بيان خاصية القيم عنده، وهي ارتباطها بالمجتمع، قال: "نظام القيم ليس مجرد خصال حميدة يتصف بها الفرد، فتكون خلقا، بل هو بالدرجة الأولى معايير للسلوك الاجتماعي والتدبير السياسي، ومحددات لرؤية العالم واستشراف المطلق".

ولا شك أن هذه الرؤية التي يصدر عنها هي المعتبرة حاليا في المجتمعات، وخاصة في المجال التربوي، الذي يتناول القيم –بما هي عناصر مؤطرة للفلسفة التربوية للمجتمعات- بشكل يجعلها حاملة لكل ما يود كل مجتمع أن يبني من خلاله الإنسان عبر منظومته التربوية، كما يتم تحديد سلم لهذه القيم، بحيث تكون مرتبة بحسب عقيدة هذا المجتمع ورؤيته للعالم ولموقعه الذي يتوخاه ضمن مكوناته.

ومن تعاريف القيم في المجال التربوي، ما نقله الأستاذ عبد الكريم غريب، من تعاريف أختار منها "تقدير نقوم به تجاه شخص أو فرد أو نشاط حسب ما يمكن تحصيله منه. وتتكون القيم من مجموع معتقدات واختيارات وأفكار تمثل أسلوب تصرف الشخص ومواقفه وآرائه، وتحدد مدى ارتباطه بجماعته، وتشكل مجموع القيم المعتمدة النظرة إلى العالم[1]".

لا بد هنا من ملاحظة التشابه بين هذا التعريف وتعريف الجابري الذي مر معنا قبل أسطر، من حيث العناصر المتضمنة في التعريفين، خاصة علاقة القيم بما هو اجتماعي، وبالنظرة إلى

[1] .- المنهل التربوي- عبد الكريم غريب- 973/2

العالم أو رؤية العالم: عبارة الجابري بهذا الخصوص هي: " . . . **معايير للسلوك الاجتماعي والتدبير السياسي، ومحددات لرؤية العالم** واستشراف المطلق" والعبارة المشابهة التي أوردها عبد الكريم غريب: " . . . **وتحدد مدى ارتباطه بجماعته، وتشكل مجموع القيم المعتمدة النظرة إلى العالم**".

فالقيم مصطلح يحيل في المجال الفكري والتربوي على الجماعة من خلال منطلقاتها الفكرية العامة والفلسفة التي تحدد رؤيتها للعالم، ومن هنا ضرورة قيام كل أمة بتحديد قيمها بوضوح، ووفق سلم أو نظام يحترم خصوصيتها العقدية والحضارية، في انفتاح إيجابي على الحضارات الأخرى، وتبقى المعادلة التي ينبغي حسن التعامل معها هي كيفية الانفتاح والتعاون والتعارف مع الآخر مع الاحتفاظ بالهوية رمز القوة والسيادة، قال الدكتور المهدي المنجرة "فالتنوع برغم كونه مصدر غنى، إلا أنه لا ينبغي بأي حال من الأحوال أن يكون باعثا على فقدان شخصيتنا وتاريخنا وماضينا وذاكرتنا بذريعة الانفتاح"[1].

ولقد أصبحنا نتحدث في المغرب مثلا عن قيم خاصة تنسجم مع ما يريده بلدنا من أجياله المستقبلية، وتم تحديد هذه القيم على العموم - حسب ما يتردد ذكره في الوثائق الرسمية - في التربية على قيم العقيدة الإسلامية، والهوية الحضارية ومبادئها الأخلاقية والثقافية، وقيم المواطنة، وحقوق الإنسان ومبادئها الكونية[2]، وإن كانت هذه الوثائق ما زالت لم تعتمد تنزيلا واضحا لهذه القيم، مشتركا بين جميع المناهج وجميع المواد الدراسية، إضافة إلى تعدد القيم المتضمنة في المناهج والموزعة بشكل لا يحيل على رؤية واضحة معتمدة لهذه القيم في ترتيبها بشكل صارم ضمن 'سلم للقيم' تتبناه الدولة ويحترمه المنهاج الدراسي بجميع مكوناته.

والمسوغ للحديث هنا عن المجال التربوي هو اشتراك التربية مع علم الأخلاق في السعي إلى الصلاح العام الذي تتم التوعية به وبسبل بناء الأفراد لتحقيقه، إضافة إلى أن المجال التربوي هو المجال الأنفع لتنزيل ما تتبناه المجتمعات في هذا المجال.

---

[1]- قيمة القيم- ص 67

[2]- انظر مثلا الكتاب الأبيض- ووثيقة الميثاق الوطني للتربية والتكوين وغيرهما .

والخلاصة من كل ما سبق:

بناء على كل ما تم إيراده من آراء، واحتكاما إلى القرآن والسنة، نخلص إلى أن أهم الفروق بين الأخلاق والقيم، يتمثل في أن الأخلاق في أصلها مركوزة في فطرة الإنسان، وأن التربية وسيلة لصقل ما بهت منها ولتهذيب ما اعوج بعوامل خارجية عن روح الإنسان، ولكن الناس يختلفون في سرعة استجابتهم لهذه التربية، وعوامل هذا الاختلاف منها ما هو نابع من ذات الإنسان، ومنها ما يرجع إلى الجو الاجتماعي العام، وإلى القائمين على التربية والتهذيب وطرقهم التي يتوسلون بها إلى ذلك، و هنا نستحضر ما يحفل به تراثنا من التركيز على القدوة، ومن الدعوة إلى تنويع وسائل التربية والتوجيه والتعليم حتى تتسع دائرة المستفيدين الذين تختلف ميولاتهم وسرعة استجابتهم لهذه التوجيهات، وللدلالة على معقولية هذا الاستنتاج نشير إلى ما نجده في القرآن الكريم من شبه غياب استعمال أفعال الأمر عند حديثه عن الأخلاق الفردية المحضة (الرحمة-الحياء-الصدق- الإخلاص. . .)، بخلاف حديثه عن الأحكام الأخرى كالصلاة مثلا(أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة)، وكحديثه عن الأخلاق التي يتعدى تأثيرها بشكل مباشر إلى المجتمع (العفو-الصفح-الإنفاق. . .)، ثم عما يتعلق بالأخلاق التي لا يتأتى للفرد وحده تحقيقها(العدل –الشورى- الإخاء-الحرية. .) فالنوع الأول جاء الحديث عنه في القرآن خاصة على شكل ثناء على المتصفين به، والآية المتعلقة بالصدق والمشتملة على الأمر هي قوله تعالى(وكونوا مع الصادقين) تحيل على مبدأ عام تلتحم الجماعة من أجل التحقق به.

بينما النوع الثاني ورد بصيغ مختلفة منها صيغة الأمر(فاعفوا واصفحوا).

أما النوع الثالث، فبالإضافة إلى وروده في القرآن الكريم بصيغ مختلفة، فقد تناولته المحطات الكبرى من السيرة النبوية تنزيلا موازيا للتنزل من أجل تثبيته وتأكيده واقعا في حياة الناس وتدريبهم على اعتماده منهجا لا سبيل للحياد عنه.

فهل يمكن اعتبار النوع الثاني ذي الطابع الاجتماعي والثالث ذي الطابع السياسي[1] قيما، بينما النوع الأول أخلاقا؟

[1] – أقصد بالسياسة هنا مفهومها الشامل لكل ما هو طرق لتدبير الحياة الاجتماعية.

والحال أن كل الأقسام كانت داخلة تحت مسمى الأحكام، ثم بدأت تنفصل عن بعضها بسبب الأزمات التي مرت بها الدولة الإسلامية، فكانت بداية الأزمة الأخلاقية مع الفتنة الكبرى، حيث انفصلت أخلاق السياسة التي لم يعد في مقدور الأفراد تحقيقها، بينما انزوت أخلاق الأفراد في ذواتهم، فوقعت القطيعة بين الأولى والثانية، ما أدى إلى ظهور ردود أفعال على هذا الانفصال والانفصام في حال الأمة، ردود أفعال تراوحت بين السلبي(الزهد والدروشة) والإيجابي(علم الكلام خاصة).

ربما يحتاج الأمر إلى مزيد من التقصي والدراسة للمصطلحات القرآنية ذات العلاقة بهذا المجال، وأكتفي هنا بما سبق من إشارات، لنعرف أننا فعلا بحاجة ماسة إلى تدقيق مصطلحات هذا العلم الشارد الذي شردت بشروده الأمة عن الجادة وعن قصد السبيل الموصل للتي هي أقوم.

معنى علم الأخلاق:

أشار مسكويه إلى ما سماه صناعة الأخلاق ، فقال: "فأما أن هذه الصناعة هي أفضل الصناعات كلها، أعني صناعة الأخلاق التي تعنى بتجويد أفعال الإنسان بما هو إنسان. . "[1]

من تعاريف علم الأخلاق الإسلامي: "مفهوم علم الأخلاق الإسلامية؛ هو علم الخير والشر والحسن والقبح، وهو واحد من العلوم الإسلامية التي تقوم على مصادر المعرفة الإسلامية منها القرآن والسنة والمصادر التشريعية الأخرى"[2].

أورد الجابري عند حديثه عن الأخلاق، كلاما يمكن أن يعتبر تعريفا لعلم الأخلاق أو صناعة الأخلاق، قال: "كان من السهل المرور من 'الخلق' بمعنى الهيأة التي تكون عليها النفس، إلى 'الأخلاق' بمعنى الصفات والخصال التي تسمى بها تلك الهيأة إلى 'صناعة الأخلاق'أو 'علم الأخلاق'بمعنى البحث المنهجي المنظم في هذه الصفات نفسها[3]".

---

[1]- تهذيب الأخلاق. ص: 270. يسمى علم الأخلاق عند المتقدمين بصناعة الأخلاق. ن ص59من مقدمة تهذيب الأخلاق.

[2]- مقداد يالجن محمد علي - علم الأخلاق الإسلامية - ص: 48.

[3]- الجابري- العقل الأخلاقي العربي ص 42.

من هذا الكلام نستنتج أنه يميز بين الخلق والأخلاق، باعتبار الخلق هو اللفظ الأصل في اللغة، والذي ورد لا بمعنى الصفات الفاضلة أو ضدها، بل ورد في عدة نصوص حديثية خاصة بمعنى الهيأة التي تكون عليها النفس، بينما علم الأخلاق أو صناعة الأخلاق هو العلم الذي يبحث بشكل منهجي منظم في الأخلاق، أو الصفات التي يتصف بها الإنسان فتكون له خلقا.

اعتبر علم الأخلاق فرعا عن الفلسفة، كما نجده عند اليوسي حيث قال بعد تصنيف العلوم إلى فلسفية ودينية: "ولنبدأ بتقسيم الفلسفيات جريا مع عباراتهم فيها، مع الإلمام بما يقبل وما لا. فنقول: العلم إما مقصود لذاته أو لغيره، أما الأول فهو الفلسفة الأولى، المقصود بها تكميل النفس الناطقة، والاطلاع على حقائق الأشياء بقدر الطاقة، وهو إما نظري وإما عملي، والأول إما مجرد عن المادة مطلقا وهو العلم الإلهي، أو في الذهن فقط وهو العلم الرياضي، أو مقيد بالمادة وهو العلم الطبيعي.

والثاني إما متعلق بنفس الشخص من حيث هي، ويسمى سياسة النفس، وعلم الأخلاق، أو بها وبما يحتاج إليه من شهوات قواها وهم: علم تدبير المنزل، أو بما يعم وهو الملكية أو السلطنة[1]".

ثم قال إن الشريعة" جاءت بما يغني عن العلوم العملية المذكورة فتركت، وذلك أن مدارها إما على حفظ النفس، وهو في الشريعة بالقصاص ونحوه، وإما على العقل، وهو فيها بتحريم ما يزيله والحد عليه. . . " وذكر جملة من الأمثلة الأخرى مستدلا على ما يقابلها في الشريعة مما كان سببا في ترك هذه العلوم العملية بما أغنى عنها من علوم الشريعة[2]. إلى أن قال: "فأسقط المتأخرون هذا القسم من علوم القدماء استغناء عنه، واقتصروا على الأقسام الباقية، أعني العلم الإلهي والرياضي والطبيعي والمنطقي[3]".

ثانيا: نشأة علم الأخلاق الإسلامي:

لا بد هنا من التمييز بين الحديث عن الكلام في الأخلاق، وبين الحديث عن علم يهتم بدراسة الأخلاق، وماهيتها ومصدرها، وما إلى ذلك من مسائل تم تحديدها في الأسئلة الموالية:

---

[1]- القانون في أحكام العلم وأحكام العالم وأحكام المتعلم - البوسي(ت 1202هـ)- ص146.

[2]- نفسه 148.

[3]- نفسه.

- ما هو منشأ شعورنا الأخلاقي؟

- ما هو أصل الدوافع الأخلاقية التي تحملنا على إطاعة ما يمليه علينا شعورنا الأخلاقي والذي يشكل سلوكنا بشكل خاص؟

- ما هي المقاصد أو الأغراض أو النتيجة الأخيرة التي نحاول أن نصل إليها بأعمالنا الأخلاقية؟

- ما هي المعايير التي نقيس على أساسها أعمالنا الأخلاقية، فنحكم عليها بأنها خير أو شر[1]؟.

فالكلام في الأخلاق لا يمكن عموما تحديد نشأته، لأن الأخلاق وجدت بوجود الإنسان، هذا على وجه العموم، أما بخصوص الكلام في الأخلاق الإسلامية فقد بدأ ببداية نزول القرآن، وتم تدوينه بداية، ضمن أبواب الحديث الشريف، ومتخللا كتب الفقه باعتباره أحكاما كغيرها من الأحكام المستنبطة من القرآن والحديث، ثم انتقل إلى مرحلة الاستقلال حيث أفردت مجموعة من المؤلفات لأخلاق مخصوصة.

أما علم الأخلاق، باعتباره علما كتبت فيه مؤلفات خاصة، فيرى الدكتور العابدي أننا: "نستطيع أن نقرر أن إطلاق لفظ 'الأخلاق' على العلم الذي موضوعه الفضائل والرذائل، ويشتمل على المعارف والطرق التي بها يمكن تقويم الأخلاق (أو تهذيبها)، لم يتم – أو على الأقل لم يستقر- إلا مع ترجمة الموروث اليوناني[2]"ويشير أن لفظ السياسة[3] أيضا لم يستعمل قبل هذه الترجمة، إذ كان لفظ الأدب الكبير يستعمل بمعنى السياسة، والأدب الصغير بمعنى الأخلاق. ثم أشار إلى أن لفظ الأدب كان يحمل دلالتين هما أدب اللسان وأدب النفس، وظل يحمل هتين الدلالتين إلى غاية القرن التاسع الهجري حسب ما يتوقعه، إذ تم فصل اللفظين فاختص لفظ الأدب بأدب

[1]– عماد الهلالي– ملحق التهذيب الأخلاق لمسكويه ص: 452

[2]– نفسه ص: 48.

[3]– يربط كثيرا في كتابه بين السياسة والأخلاق لاعتقاده الراسخ بأن السياسة موجهة للأخلاق، كما يتضح من بعض الاقتباسات الواردة في البحث .

اللسان، كما جاء في كتاب صبح الأعشى، بينما اعتبر علم الأخلاق واحدا من العلوم العملية الثلاثة علم الأخلاق و علم السياسة وعلم تدبير المنزل[1].

يرى الجابري أن أصل الكتابة في الأخلاق يرجع إلى ظاهرة الترسل التي اعتمدها خلفاء وأمراء بني أمية، وهي عبارة عن إصدار الأوامر والوصايا والعهود إلى الرعية في رسائل تتلى في الساحات والمساجد، وتصاغ بشكل بلاغي يقوم على الاستشهاد بالقرآن والسنة ، و يجمع بين أدب اللسان وأدب النفس، وهدفها تكريس أخلاق الطاعة كما يسميها، ثم صارت هذه الرسائل نماذج يعاد إنتاجها عبر العصور[2]

ثم يقول: "والحق انه سيكون من الخطأ –عند رصد مراحل التأليف في القيم والأخلاق في الثقافة العربية- إغفال الدور الذي قامت به ظاهرة الترسل، في التأسيس لهذا النوع من 'الأدب" أدب اللسان 'المحمل ب'أدب النفس'، يتعلق الأمر بخطاب بلاغي 'مصنوع' من أجل أن يذيع في الناس، خاصتهم وعامتهم، قيما معينة، ولا بد من الإشارة هنا إلى أن 'الكتاب' الذين أسسوا لهذا النوع من 'الأدب' الذي يجمع بين تقويم اللسان وتهذيب الأخلاق، كان يطلق على الواحد منهم في الأصل اسم 'المؤدب'، أي المعلم/ المربي[3]".

وهو هنا يروم بيان تأثير القيم اليونانية على الحياة العربية من خلال هؤلاء الكتاب الذين نقلوا كتب حضاراتهم الأصلية من خلال ترجمتها في هذا النوع من الكتابة، مثل ما فعله عبد الحميد الكاتب، كما يهدف إلى إثبات دور السياسة في إنتاج الفكر الأخلاقي العربي، وتوجيهه لصالحها.

يقول إن الهدف من هذا الترسل هو ممارسة "الضغط 'البلاغي' على الناس من أجل الركون إلى الهدوء والسكينة، وكما كانت القيم الدينية، زمن الاندفاعة ونشر الرسالة، وسيلة للتعبئة والتحميس من أجل الفتح والجهاد، سيلجأ الحكام زمن الثورات والفتن إلى توظيف القيم الدينية ذاتها من أجل الدعوة إلى التزام الطاعة التي تعني 'القعود' و'السكينة'[4]"

---

[1] .– نفسه 49

[2] – ن ص 133.

[3] – العقل الأخلاقي العربي ص 133.

[4] – نفسه 135.

ثم يبين أن"الموروث الفارسي، خاصة منه ما يتعلق بالملوك والآداب السلطانية والبروتوكول والسياسة والأخلاق والكتاب قد نقل في وقت مبكر جدا-سنة 113هـ-[1]" ثم يبن دور الخلفاء الأمويين في هذه الحركة العلمية وتشجيعهم عليها. .

ويقول متحدثا عن كتاب دفع الأحزان للكندي: "نخلص مما تقدم إلى الصدع بالحقيقة التاريخية التالية وهي أن أول ما انتقل إلى الثقافة العربية من الموروث اليوناني في مجال القيم والأخلاق هو تلك النزعة الطبية الفيزيولوجية التي كرسها جالينوس في هذا المجال من خلال قراءة أخلاق أفلاطون قراءة طبيب لا قراءة فيلسوف[2]"

ثم بعد أن يبين أن هذه النزعة الطبية هي أول ما انتقل إلى الثقافة العربية من الموروث اليوناني، يقول: "وإذا كان الكندي هو أول ممثل لهذه النزعة، فإن ممثلها الرسمي هو الرازي الطبيب الذي كانت مكانته في الطب والأخلاق في الثقافة العربية بمنزلة جالينوس في الموروث اليوناني[3]".

ثم يقول: "إن التدوين في الأخلاق في الثقافة العربية الإسلامية، لم يجر في البداية لا داخل الموروث العربي الخالص ولا داخل الموروث الإسلامي الخالص، وأهمية هذه الحقيقة التاريخية بالنسبة لموضوعنا لا تخفى، فالتأريخ للفكر الأخلاقي في الإسلام سواء من أجل كتابة تاريخه، أو من أجل اكتساب تصور عام للشكل الذي جرت عليه الأمور فيه، يتوقف أول ما يتوقف على تحديد البداية. . . ".

إلى أن يقول:

"لقد تعرفنا على نوع الشكل اللغوي الذي لبسه التدوين في الأخلاق في الإسلام، وهذا شيئ مهم لأن الأخلاق في البداية كانت أدبا، وكانت تجمع بين أدب اللسان وأدب النفس، كما بينا. . . في القسم السابق، وتعرفنا كذلك على طبيعة المضمون الذي ركب هذا الشكل، واكتشفنا أن أدب النفس يجمع هو الآخر بين بعدين اثنين أدب النفس، مطلق النفس، وأدب السلطان، وأن القيمة

---

[1]- نفسه 147.

[2]- نفسه 293

[3]- نفسه.

المركزية في هذه الآداب التي تشكل ثلاثة في واحد هي الطاعة، طاعة السلطان، ومن هنا جاز أن نطلق عليها أخلاق الطاعة[1]. "

ويصف بهذا الخصوص كتاب كليلة ودمنة لابن المقفع بأنه المرجع الأول في تكوين العقل العربي الإسلامي منذ عصر التدوين، إلى بداية ما أسماه' عصر النهضة العربية الحديثة'، بل إنه اعتبر بمثابة الكتاب المدرسي في مصر لسنوات[2].

وخارج ما فعله الأستاذ الجابري، نجد في محاولات التأريخ للفكر الأخلاقي الإسلامي اضطرابا بينا بين المحاولات القليلة الموجودة في هذا المجال، حيث يسير كل مؤلف في اتجاه خاص، ويذكر كتبا ويغفل أخرى، ويحدد مراحل يغفلها غيره ، وهذا الاضطراب راجع ربما إلى جدة البحث في الموضوع، وذلك ما نفهمه من كلام الجابري، عندما قال: "في ميدان القيم و الأخلاق، لا نعاني من فراغ المكتبة العربية الحديثة من محاولات سابقة في 'نقد العقل العربي' فحسب، بل نعاني كذلك من شبه فراغ في مجال التأريخ للفكر الأخلاقي في الإسلام[3]".

وسأحاول هنا عرض تصور مبدئي للمراحل التي مر بها علم الأخلاق الإسلامي.

المرحلة الأولى: وتتمثل في العهد النبوي وصدر الخلافة الراشدة: أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، واعتبرت هذا التقسيم للخلافة الراشدة بسبب أن معظم الجيل المنتمي لهذه المرحلة كان من تربية القرآن على يد الرسول صلى الله عليه وسلم، مما جعلها على المستوى الخلقي تمتاز بالتحام الأخلاق بالأحكام لأنها أحكام، وبالسنة لأنها تطبيق عملي لتلك الأحكام، كما سبق بيانه، ومن هنا لم تظهر الحاجة إلى عزل الأخلاق ومصطلحاتها، لأن المصطلحات الأخلاقية هي نفسها المصطلحات القرآنية، بالنسبة للأخلاق العملية، إضافة إلى أن الرؤية الكونية للقرآن كانت واضحة وكان مرجع تجليها والاستمداد منها متمثلا في اجتهادات عمر رضي الله عنه، ناهيك عن خلو المرحلة من كتابة غير القرآن الكريم.

المرحلة الثانية: وتبتدئ بالفتنة الكبرى في عهد عثمان رضي الله عنه، وميزتها أنها طبعت بطابع القبلية بعد دخول الأعراب بقوة في معترك الحياة السياسية، ولكنها من حيث المصطلحات

---

[1]- 149.

[2]- ص: 173

[3]- الدكتور محمد عابد الجابري- العقل الأخلاقي العربي- ص : 17.

ظلت وفية للمصطلح الشرعي، وإن ظهرت مخالفة على المستوى العملي، ولكن كانت هناك محاولات للإصلاح بالتركيز على مصطلحات كالقضاء والقدر والعدل(عند الطبقة الحاكمة ومن ثم المتكلمين)، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر(عند طائفة الزهاد مثلا). وهنا انفصلت أخلاق السياسة عن أخلاق النفس كما سبق.

يقول أحمد أمين: "إذًا كان في العصور الأولى للإسلام نزعات جاهلية، ونزعات إسلامية، كانتا تسريان جنبًا إلى جنب، والذي يظهر لنا أن النزعة الجاهلية أثرت في الأدب الأموي — وخاصة الشعر — أكبر أثر، فالمعاني الجاهلية، والهجاء الجاهلي، والفخر الجاهلي، والحميَّة الجاهلية، كلها واضحة أجل وضوح في الشعر الأموي، فأما النزعة الإسلامية فظهرت في العلوم الشرعية، فقد أقبل المسلمون على القرآن يتدارسونه، والحديث يجمعونه، ويستمدون منهما الأحكام، ويستخرجون المواعظ، وهذا هو موضوعنا، وهو ما سنبينه بعد، وسنذكر عند الكلام على الحركة العلمية أثر الإسلام في العلم"[1].

ولا شك أن هذا الوضع سيخلق ازدواجية في الأحكام على الأمور عند المسلمين، ما أنتج انفصالا بين ما يعيشه المسلم في عباداته وتلاوته للقرآن، وما يحاصره في الحياة الأدبية التي تترجم الصراعات الأخلاقية والسياسية بين مختلف مكونات المجتمع، ولعل هذا الواقع شكل ما نعتقد بأنه تجلي الانفصال بين الأخلاق والقيم، باعتبار الأولى يحملها المسلم بشكل فطري يزكو بالشريعة، والثانية معايير يفرضها الواقع الاجتماعي والسياسي. ومستند هذا القول ما عبر عنه الأستاذ الجابري ببداية أزمة القيم التي يرى أن سببها ما عرفة المسلمون من تدفق للثروات بسبب الفتوحات، وما نتج عن مقتل عثمان رضي الله عنه وانقسام فعلي بين المسلمين.

المرحلة الثالثة: تبتدئ بالفترة الثانية من الخلافة الأموية بعد موت معاوية وانتقال الحكم إلى مروان بن الحكم، وفي هذه المرحلة، ظلت بعض مصطلحات القرآن حاضرة، خاصة مفهوم العدل، ، بل لقد اشتد الصراع السياسي بين الأمويين والخوارج ما أنتج فكرا قائما على النقاش الحاد بخصوص مفاهيم أخلاقية لها علاقة بالإيمان كمفهوم الفسوق والكبيرة. . . وبذلك ظهر المعتزلة من منطلق أخلاقي لإنقاذ الناس من الصراع بخصوص مسمى الإيمان، واتصاف مرتكب

[1]- فجر الإسلام ص 94

الكبيرة بالكفر أو بالإيمان، فقالوا بالمنزلة بين المنزلتين[1]. لكن هذه المرحلة عرفت دخول بعض المصطلحات المستوردة من الإسرائيليات، خاصة ما يتعلق بالمصطلحات السياسية، كالبداء ووراثة النبوة والغيبة والمهدية . . .

المرحلة الرابعة: الانفتاح على الثقافتين الفارسية واليونانية :

-في الواقع ، يصعب الفصل بين هذه المرحلة وسابقتها فصلا زمنيا، باعتبار الانفتاح على الثقافتين الفارسية واليونانية، وخاصة الفارسية، قد يكون حصل في زمن مبكر على مستوى الأفراد، وذلك بسبب دخول عدد كبير من الفرس في الاسلام، وتأثرهم وتأثيرهم في أفراد العرب المسلمين، حتى أن هناك من يقول إن بعض الصحابة اصطبغوا في حياتهم بأفكار قوية انتقلت إليهم من الثقافات السابقة، مثال ذلك ما قيل عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، من أنه تأثر في زهده بتعاليم مزدك[2] في الأموال[3].

يقول أحمد أمين: "هذه مذاهب الفرس الدينية، وقد ذابت في المملكة الإسلامية بعد الفتح، وكثري منهم ٍ أسلموا ولم يتجردوا من كل عقائدهم التي توارثوها أجيالا، وبمرور الزمان صبغوا آراءهم القديمة بصبغة إسلامية، فنظرة الشيعة في علي وأبنائه هي نظرة آبائهم الأولين ٍ من الملوك الساسانيين، وثنوية الفرس كانوا منبعا يستقي منه «الرافضة» في الإسلام، فحرك ذلك المعتزلة لدفع حجج الرافضة وأمثالهم؛ [. . .] وكانت إثارة هذه المسائل أحيانًا تُقسم المسلمين أنفسهم إلى فرق، فينحازون إلى مذاهب ويتجادلون فيما بينهم، مما أدى إلى نشأة علم الكلام في الإسلام[4]".

وقال: "الأخلاق الإسلامية تأثرت بثلاثة مؤثرات: أولها — التعاليم الدينية [. . .] ثانيها — فلسفة اليونان، وذلك بما نقل منها في العصر العباسي، ومن الأمثلة على ذلك ما تقرؤه في كتاب

---

[1]- يرى غير واحد من المفكرين أن سبب إثارة قضية الإيمان والكفر وارتكاب الكبيرة يعود إلى محاولة الأمويين تبرير ماعرفته فترة حكمهم من صراعات سياسية، ومن مقتل لبعض الصحابة في سبيل تحقيق مصالح سياسية.

[2]- مَزْدَك المتوفى نحو 528 ميلادية زعيم ديني فارسي .

[3]- يقول أحمد أمين بناء على ما نقله من كتب التاريخ: فمن المحتمل القريبَ أن يكون قد تلقى هذه الفكرة من مزدكية العراق أو اليمن، واعتنقها أبو ذر حَ سن النية في اعتقادها، وصبغها بصبغة الزهد التي كانت تجنح إليها نفسه، فقد كان من أتقى الناس وأورعهم وأزهدهم في الدنيا، وكان من الشخصيات المحبوبة التي أثرت في الصوفيةفجر الإسلام- ص. 123

[4]- فجر الإسلام 124

ابن[1] مسكويه من شرح نظرية أرسطو في أن كل فضيلة وسط بني رذيلتين، ومن نظرية أفلاطون في أسس الفضائل الأربعة، وهي: الحكمة والعفة ِ والشجاعة والعدل، ونحو ذلك، ثالثها — وهو الذي يهمنا هنا — نوع من الحكم والجمل القصيرة تُصاغ صوغ الأمثال، أو حكايات تنقل فيها أخبار الملوك ووزرائهم ووعاظهم والحكماء في زمنهم، وما جرى على ألسنتهم، وهذا النوع غمر كتب الأدب، وتأثرت به الأخلاق في الإسلام أكثر من تأثرها بالفلسفة اليونانية؛ [. . .] وكان للفرس في ذلك الشيء الكثير، إما مبتكر من عند أنفسهم، أو منقول من الهند عن طريقهم؛ وأوضح مثَل لذلك الأدب الصغير والأدب الكبير لابن المقفع الفارسي".

وابتداء من هذه المحطة، فقدت الأمة بوصلتها، خاصة في المجال الفكري الموجه للحضارة، ومنه الجانب القيمي الأخلاقي، بسبب الانخراط في أمور ألهت المسلمين عن رسالتهم الإعمارية، يقول الأستاذ الدكتور عبد الحميد أبو سليمان مبينا خطورة المنقول الفلسفي على الأمة الإسلامية: ": إننا لو أحسنا التأمل في مسيرة الفكر الإسلامي التاريخية لوجدنا أنه كان لكل تلك العوامل مجتمعة، وخاصة صورية منطق الفكر الإغريقي وأسطورية عقائده وفلسفته، والتي كان يجب التنبه لها، للإفادة من الجوانب الإيجابية فيها، وتلافيا للجوانب السلبية فيها، على ضوء منظومة الأمة العقائدية القرآنية الحضارية، فكان لتلك الغفلة في التعامل مع ذلك الفكر الإغريقي والحضارة الإغريقية أسوأ الأثر على تلك المسيرة ووجهتها العقائدية والفكرية والحضارية؛ لتستنزف تلك الأخطاء طاقة العقل المسلم باستخدامه وتوظيفه سياسيا في سفسطات عقدية غيبية لاهوتية وهمية، ولتصرفه عن مهمته الحضارية التسخيرية الإبداعية الحياتية الإعمارية، وذلك فيما عرف بقضايا خلق القرآن الكريم وما شاكلها من أمور الغيب وقضايا القضاء والقدر وسواها من عقيم قضايا علوم الكلام والفلسفة، وغير ذلك من قضايا لا تتعلق بشؤون إدارة حياة الإنسان، ولا نفع يرجى من ورائها، واستنزفت في أوارها عقول العلماء والفلاسفة من علماء السنة والاعتزال، وعلماء الكلام والتصوف والتشيع، وفلسفات الإلهيات وضلالات الغنوصيات والخرافيات والشعوذات؛

[1]- يثبت محقق كتاب 'تهذيب الأخلاق' عماد الهلالي، في مقدمة تحقيقه للكتاب إن اسم المؤلف هو : مسكويه، لا ابن مسكويه كما شاع خطأ.

فكان ذلك لسوء الحظ سوء استثمار وسوء استخدام للعقل المسلم وصرفه عن غاية فطرته السوية في خدمة الحياة، ووضعه في غير موضعه. "[1]

-المرحلة الراهنة:

وأعتقد أن بداية هذه المرحلة تبدأ مع بداية من القرن العشرين، حيث ظهر علماء ومفكرون ركزوا على الإصلاح من مداخل فكرية تربوية أخلاقية، ومرجعية إسلامية خالصة تعتمد النص الشرعي، من قرآن وسنة في هذا الإصلاح الشامل المتوخى، من أمثال محمد رشيد رضا مع الشيخ محمد عبده كما يظهر من خلال تفسير المنار خاصة، ومن أمثال الشيخ محمد عبد الله دراز(توفي سنة 1958م)، الذي حاول استخراج دستور الأخلاق القرآنية في كتابه 'دستور الأخلاق' المترجم عن الأصل الفرنسي بعنوان 'أخلاق القرآن'، والأستاذ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، في كتابه' الأخلاق القرآنية وأسسها'، والأستاذ محمد عابد الجابري في سلسة كتبه في نقد العقل العرب، والأستاذ المهدي المنجرة في مشاركاته الفكرية المتعلقة بالقيم كما في إصداره 'قيمة القي'، والأستاذ طه عبد الرحمن. . . وغيرهم كثيرون، وإنما ذكرت من اعتمدت كتبهم مراجع في هذا البحث المتواضع.

ثالثا: استنتاجات: علاقة المصطلح القرآني بعلم الأخلاق:

مما سبق يمكن القول إن علم الأخلاق كغيره من العلوم التي نشأت في أحضان الحضارة الإسلامية، استعمل مصطلحات القرآن كمنطلقات تم التأسيس عليها، غير أنه يمكن ملاحظة انحرافين في هذا المجال:

الأول يتمثل في مزاحمة مصطلحات منقولة عن الفلسفات الأخرى المصطلح القرآني، خاصة عند الأخلاقيين الفلاسفة، كما رأينا عند مسكويه كنموذج لم يحد عما كان عليه أمثاله، فقد استعمل مصطلحات قرآنية، لكن المصطلحات المحورية عنده كانت منقولة من الثقافات الأخرى منها مصطلحات من قبيل: القوة الناطقة والغضبية والبهيمية- السعادة والخير والشر و الفضائل الزائفة والفضائل الحقبيقية والعدالة والعفة والشجاعة. . . وهذه الأخيرة وإن كانت تتلاقى مع

[1]– كتاب الرؤية الكونية الحضارية القرآنية– د. عبد الحميد أبو سليمان ص30

المصطلحات القرآنية إلا أنه صرح في غير موضع من كتابه أنه كان ينقلها عن الفلاسفة ويسميهم الحكماء منهم أفلاطون وأرسطو وغيرهما. قال عماد الهلالي، محقق كتاب 'تهذيب الأخلاق'، بعد أن بين ولع مسكويه بالمصطلحات الأفلاطونية: "والواقع أنه هو ذاتيا يعترف بهذا التلاقي العفوي في المفاهيم والمصطلحات بين المفكرين، وقد جاء ذلك على لسانه في كتابه تهذيب الأخلاق ، يتحدث فيه عن عبادة الله قائلا: 'هذه الأشياء التي عددناها الآن، لا خلاف بين الحكماء فيها وبين أصحاب الشرائع، وإنما يختلف بالعبارات والإشارات إليها بحسب اللغات'[1]"

الثاني: في استعمال مصطلحات قرآنية أصيلة، لكنها حملت بدلالات مستوحاة من أفكار دخيلة على المسلمين، من ذلك مصطلح العدل، حيث " طغى البحث في مفهوم العدالة الإلهية على مفهوم العدالة البشرية في القرون الأولى سواء في أوساط المعتزلة أو الأشاعرة، ولم تأخذ العدالة بمعناها الثاني في الرواج إلا في الأوساط الفلسفية البحتة عند الفارابي أولا ثم عند مسكويه الذي ينسب إليه المؤلف الوحيد في ماهية العدالة ، وهو مؤلف خلقي أرسطوطالي المنحى أردف به مسكويه جوانب أفلاطونية محدثة في كلامه على العدالة في مؤلفه الخلقي الأكبر: تهذيب الأخلاق. كانت الفلسفة الخلقية هذه من أهم الأبواب الأصلية في سيرة التأليف الفلسفي بالعربية.[2]"

ويصدق هنا ما قاله الأستاذ طه عبد الرحمن في نقده للفكر الفلسفي الأخلاقي عموما، قال: " السبب في اضطراب المفاهيم الأخلاقية يرجع إلى كون الفلاسفة غلب عليهم الاشتغال بها من دون ردها إلى المجال الحقيقي الذي تنتسب إليه، بحيث بقيت في تعاملهم معها، متزلزلة لا تثبت في معانيها، ومتأرجحة لا يستقر بها قرار، ومتذبذبة لا تقيم على حال، وليس هذا المجال المنسي الذي بدونه لا تسكن هذه المفاهيم ولا تثبت ولا تتمكن إلا مجال 'الدينيات'[3].

---

[1] .- مقدمة تحقيق تهذيب الأخلاق ص: 149

[2]- مقدمة تحقيق تهذيب الأخلاق ص: 38- 39 ، نقلا عن بحث للدكتور ماجد فخري من مجلة الفكر العربي- العدد السابع والخمسون- سنة 1989- بيروت.

[3]- سؤال الأخلاق- ص: 24.

وختاما أقول: إن استكمال التأليف في علم أخلاق إسلامي أصيل هو واجب كفائي، وبدايته لا بد أن تنطلق من المصطلح القرآني الذي هو وحده الكفيل بتوحيد الرؤى، وتوضيح المنهج القويم، شرط أن تدقق معاني المصطلحات الأخلاقية وشرط أن يوضع من ثم العلم الحامل لها في موضعه الذي أراده له الشرع عندما اعتبر تتميم مكارم الأخلاق مقصدا للبعثة، وورد في نصوص قرآنية عدة أن هذا الإصلاح الخلقي النفسي والمجتمعي وظيفة من وظائف الرسول صلى الله عليه وسلم، من هذه النصوص قوله سبحانه: (كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ) البقرة151 .

وينتظر أن يقوم العلماء بدورهم في حمل هذه الرسالة وتحملها من منطلق الوراثة التي كلفهم بها الرسول صلى الله عليه وسلم.

والحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع:

1- الأخلاق الإسلامية وأسسها- الميداني: عبد الرحمن حسن حبنكة –دار القلم-دمشق- الطبعة الخامسة-1420هـ/1999م.

2- أساس البلاغة- الزمخشري: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، جار الله -(المتوفى: 538هـ)-تحقيق: محمد باسل عيون السود- دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان-الطبعة: الأولى، 1419 هـ - 1998 م

3- تهذيب الأخلاق-مسكويه: أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب -دراسة وتحقيق عماد الهلالي- منشورات الجمل

4- دستور الأخلاق في القرآن: دراسة مقارنة للأخلاق النظرية في الفرآن- محمد عبد الله دراز- ترجمة السيد محمد بدوي-دار الرسالة-دار البحوث العلمية-

5- الذريعة إلى مكارم الشريعة- الأصفهاني: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (المتوفى: 502هـ)-تحقيق: د. أبو اليزيد أبو زيد العجمي-دار النشر: دار السلام – القاهرة-عام النشر: 1428 هـ - 2007 م

6- الرؤية الكونية الحضارية القرآنية المنطلق الأساس للإصلاح الإنساني-د. عبد الحميد أبو سليمان-كتاب إلكتروني-سنة 1429هـ-2008م.

7- سؤال الأخلاق: مساهمة في النقد الحداثي للثقافة الغربية_ طه عبد الرحمن-المركز الثقافي العربي-الدار البيضاء المغرب- الطبعة الثانية 2000.

8- العقل الأخلاقي العربي: دراسة تحليلية نقدية لنظم القيم في الثقافة العربية- الدكتور محمد عابد الجابري- مركز دراسات الوحدة العربية-بيروت-الطبعة الأولى 2001.

9- علم الأخلاق الإسلامية- مقداد يالجن محمد علي- دار عالم الكتب للطباعة والنشر – الرياض- الطبعة الثانية 1424هـ-2003.

10- عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ- أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي (المتوفى: 756 هـ)- محمد باسل عيون السود- دار الكتب العلمية-الطبعة: الأولى، 1417 هـ - 1996 م

11- فجر الإسلام- أحمد أمين- نسخة إلكترونية.

12- القانون في أحكام العلم وأحكام العالم وأحكام المتعلم-اليوسي: أبو المواهب الحسن بن مسعود(المتوفى سنة 1102هـ)-تحقيق وشرح وفهرسة وتعليق حسن حماني-مطبعة شالة – الرباط –الطبعة الأولى 1998.

13- قيمة القيم- المهدي المنجرة-الطبعة الثانية-2007.

14- كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم-التهانوي: محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد بن محمّد صابر الفاروقي الحنفي (المتوفى: بعد 1158هـ)-تقديم وإشراف ومراجعة: د. رفيق العجم تحقيق: د. علي دحروج-نقل النص الفارسي إلى العربية: د. عبد الله الخالدي-الناشر: مكتبة لبنان ناشرون – بيروت-الطبعة: الأولى - 1996م.

15- لسان العرب-ابن منظور: محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري (المتوفى : 711هـ)- الناشر: دار صادر – بيروت-الطبعة الأولى

16- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم- محمد فؤاد عبد الباقي-دار الحديث –القاهرة- الطبعة الثانية 1988.

17- المفردات في غريب القرآن- أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (المتوفى: 502هـ)-المحقق: صفوان عدنان الداودي- دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت-الطبعة: الأولى - 1412 هـ

18- المنهل التربوي-عبد الكريم غريب- منشورات عالم التربية-مطبعة النجاح الجديدة-الدار البضاء-الكبعة الأولى 2006.

19- Le petit Robert 1 --Paris 1992-2 eme édition